الفصل السابع

دعائم دولة الإِسلام في المدينة

شرع رسول الله ﷺ منذ دخوله المدينة، يسعى لتثبيت دعائم الدولة الجديدة، على قواعد متينة، وأسس راسخة، فكانت أولى خطواته المباركة الاهتمام ببناء دعائم الأمة، كبناء المسجد الأعظم بالمدينة، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار على الحب في الله، وإصدار الوثيقة أو الدستور الإِسلامي في المدينة، الذي ينظم العلاقات بين المسلمين واليهود ومشركي المدينة، وإِعداد جيش لحماية الدولة، والسعي لتحقيق أهدافها والعمل على حل مشاكل المجتمع الجديد، وتربيته على المنهج الرباني في شؤون الحياة كافة، فقد استمر البناء التربوي والتعليمي، واستمر القرآن الكريم يتحدث في المدينة عن عظمة الله، وحقيقة الكون، والترغيب في الجنة، والترهيب من النار، ويشرع الأحكام لتربية الأمة، ودعم مقومات الدولة التي ستحمل نشر دعوة الله بين الناس قاطبة، وتجاهد في سبيل الله.

وكانت مسيرة الأمة العلمية والتربوية تتطور مع تطور مراحل الدعوة، وبناء المجتمع، وتأسيس الدولة.

وعالج رسول الله ﷺ الأزمة الاقتصادية بالمدينة من خلال المنهج الرباني. واستمر البناء التربوي، ففُرض الصيام وفُرضت الزكاة، وأخذ المجتمع يزدهر والدولة تتقوى على أسس ثابتة وقوية.

المبحث الأول

الدعامة الأولى

بناء المسجد الأعظم بالمدينة

«كان أول ماقام به الرسول ﷺ بالمدينة بناء المسجد، وذلك لتظهر فيه شعائر الإِسلام التي طالما حوربت، ولتقام فيه الصلوات التي تربط المرء برب العالمين، وتنقي القلب من أدران الأرض وأدناس الحياة الدنيا»(١).

---

(١) انظر: فقه السيرة للغزالي (ص ١٩١) وفقه السيرة للبوطي (ص ٥١) بتصرف.

روى البخاري بسنده أن رسول الله ﷺ دخل المدينة راكبًا راحلته، فسار يمشي معه الناس حتى بركت عند مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة وهو يصلي فيه يومئذٍ رجال من المسلمين، وكان مِرْبدًا[(١)] للتمر لسهل وسهيل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته: «هذا إن شاء الله المنزل» ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمِرْبد ليتخذه مسجدًا، فقالا: لا، بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبةً حتى ابتاعه منهما[(٢)].

وفي رواية أنس بن مالك: فكان فيه ما أقول: كان فيه نخل وقبور المشركين وخَرِب، فأمر رسول الله ﷺ بالنخل فقطع، وبقبور المشركين فنُبشت، وبالخَرِب فسُوّيت، قال: فصفوا النخل قبلةً، وجعلوا عِضَادتيه حجارة، قال: فكانوا يرتجزون، ورسول الله ﷺ معهم وهم يقولون:

اللـهـم! إنه لا خـيـر إلا خـيرُ الآخـره ... فـانـصـر الأنـصـار والـمـهـاجـره[(٣)]

شرع الرسول ﷺ في العمل مع أصحابه، وضرب أول معول في حفر الأساس الذي كان عمقه ثلاث أذرع، ثم اندفع المسلمون في بناء هذا الأساس بالحجارة، والجدران ـ التي لم تزد على قامة الرجل إلا قليلاً ـ باللبن الذي يعجن بالتراب، ويسوّى على شكل أحجار صالحة للبناء[(٤)]. وفي الناحية الشمالية منه أقيمت ظلة من الجريد على قوائم من جذوع النخل، كانت تسمى «الصُّفة». أما باقي أجزاء المسجد فقد تركت مكشوفة بلا غطاء[(٥)].

أما أبواب المسجد فكانت ثلاثة: باب في مؤخرته من الجهة الجنوبية، وباب في الجهة الشرقية، كان يدخل منه رسول الله ﷺ بإزاء باب بيت عائشة، وباب من الجهة الغربية، يقال له باب الرحمة أو باب عاتكة[(٦)].

أولاً: بيوتات النبي ﷺ التابعة للمسجد:

وبُني لرسول الله ﷺ حُجَر حول مسجده الشريف، لتكون مساكن له ولأهله، ولم تكن الحجر كبيوت الملوك والأكاسرة والقياصرة، بل كانت بيوتَ من تَرَفَّع عن الدنيا وزخارفها، وابتغى الدار الآخرة. فقد كانت كمسجده مبنية من اللبن والطين، وبعض الحجارة. وكانت سقوفها من جذوع النخل والجريد، وكانت صغيرة الفناء قصيرة البناء، ينالها الغلام الفارع بيده. قال الحسن البصري ـ وكان غلامًا مع أمه خَيرة مولاة أم سلمة ـ: «قد كنت أنال أول

---

(١) مربد: الموضع الذي يجفف فيه التمر. القاموس المحيط (١/ ٣٠٤).

(٢) البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ورقمه (٣٩٠٦).

(٣) مسلم، كتاب المساجد، باب ابتناء مسجد النبي ﷺ، ورقمه (٥٢٤).

(٤) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٣٣)، التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة، د. علي معطي (ص ١٥٦).

(٥) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٣٠٣)، محمد رسول الله ﷺ، لمحمد رضا (ص ١٤٣).

(٦) انظر: التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة، د. علي معطي (ص ١٥٧).

سقف في حجر النبي ﷺ بيدي»[١]. وهكذا كانت بيوت النبي ﷺ في غاية البساطة، بينما كانت المدينة تشتهر بالحصون العالية التي كان يتخذها عِلْيَةُ القوم، تباهياً بها في السَلْم، واتقاءً بها في الحرب، وكانوا مِنْ تفاخرهم بها يضعون لها أسماء، كما كان حصن عبد الله بن أُبي ابن سلول اسمه مزاحماً، وكما كان حصن حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ اسمه فارعاً.

ولكن النبي ﷺ بنى بيوته بذلك الشكل المتواضع، وكان باستطاعته أن يبني لنفسه قصورًا شاهقة، ولو أنه أشار إلى رغبته بذلك ـ مجرد إشارة ـ لسارع الأنصار في بنائها له، كما كان بإمكانه أن يشيدها من أموال الدولة العامة كالفيء ونحوه، ولكنه ﷺ لم يفعل ذلك ليضرب لأمته مثلاً رفيعاً، وقدوة عالية في التواضع والزهد في الدنيا، وجمع الهمة والعزيمة للعمل لما بعد الموت[٢].

ثانيًا: الأذان في المدينة:

تشاور رسول الله ﷺ مع أصحابه لإيجاد عمل ينبه النائم ويدرك الساهي، ويُعْلِم الناس بدخول الوقت لأداء الصلاة، فقال بعضهم: ترفع راية إذا حان وقت الصلاة ليراها الناس، فاعترضوا على هذا الرأي لأنها لا تفيد النائم، ولا الغافل. وقال آخرون: نُشعل نارًا على مرتفع من الهضاب، فلم يقبل هذا الرأي أيضًا. وأشار آخرون ببوق، وهو (ما كانت اليهود تستعمله لصلواتهم) فكرهه الرسول ﷺ لأنه يحب مخالفة أهل الكتاب في أعمالهم. وأشار بعض الصحابة باستعمال الناقوس وهو (مايستعمله النصارى) فكرهه الرسول ﷺ أيضًا. وأشار فريق بالنداء فيقوم بعض الناس إذا حانت الصلاة وينادي بها فقُبل هذا الرأي. وكان أحد المنادين عبد الله بن زيد الأنصاري فبينما هو بين النائم واليقظان، إذ عرض له شخص وقال: ألا أعلمك كلمات تقولها عند النداء بالصلاة؟ قال: بلى، فقال له: قل: الله أكبر مرتين، وتشهد مرتين، ثم قل: حي على الصلاة مرتين، ثم قل: حي على الفلاح مرتين، ثم كبر ربك مرتين، ثم قل: لا إلٰه إلا الله. فلما استيقظ توجه إلى الرسول ﷺ وأخبره خبر رؤياه فقال: «إنها لرؤيا حق» ثم قال له: «لقن بلالا فإنه أندى صوتاً منك»، وبينما بلال يؤذن للصلاة بهذا الأذان جاء عمر بن الخطاب يجر رداءه، فقال: والله لقد رأيت مثله يا رسول الله، وكان بلال بن رباح أحد مؤذنيه بالمدينة، والآخر عبد الله بن أم مكتوم، وكان بلال يقول في أذان الصبح بعد حي على الفلاح: «الصلاة خير من النوم مرتين»، وأقرّه الرسول ﷺ على ذلك[٣]، وكان يؤذن في البداءة من مكان مرتفع ثم استُحدثت المنارة (المئذنة).

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٣٦).

(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١٣).

(٣) انظر: نور اليقين للخضري، تحقيق أحمد عبد اللطيف، (ص ٩٥)، وتاريخ خليفة بن خياط، (ص ٥٦) نقلاً عن تاريخ دولة الإسلام الأولى، د. فايد حماد عاشور، سليمان أبو عزب، (ص ١٠٨).

ثالثًا: أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة:

كانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة أنه قام فيهم، فحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال:

«أما بعد: أيها الناس فقدموا لأنفسكم. تَعْلَمُنَّ والله لَيُصعقَنَّ أحدكم، ثم لَيَدَعَنَّ غنمه ليس لها راعٍ، ثم ليقولن له ربه، وليس له تَرجُمان، ولا حاجبٌ يحجبه دونه: ألم يأتك رسولي فبلغَّكَ، وآتيتك مالاً، وأفضلت عليك، فما قدمت لنفسك؟ فَلَيَنْظُرَنَّ يمينًا وشمالاً فلا يرى شيئًا، ثم لينظرن قُدّامه فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق من تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تُجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

ثم خطب رسول الله ﷺ مرة أخرى فقال:

«إن الحمد لله أحمده وأستعينه، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. إنَّ أحسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالى، قد أفلح من زينه الله في قلبه، وأدخله في الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس. إنه أحسن الحديث وأبلغه. أحبوا من أحبَّ الله، أحبوا الله من كل قلوبكم، ولا تملُّوا كلام الله وذكرَه، ولا تَقْسُ عنه قلوبكم، فإنه من كل ما يخلق الله؛ يختار ويصطفي، قد سمَّاه الله خِيرتَه من الأعمال، ومصطفاه من العباد، والصالح من الحديث، ومن كل ما أوتي الناس الحلالُ والحرام، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، واتقوه حق تقاته، واصدُقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم، وتحابُّوا بروح الله، إن الله يغضب أن يُنكَث عهدهُ، والسلام عليكم»[١].

رابعًا: الصُّفَّة التابعة للمسجد النبوي:

لما تمّ تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة بأمر الله تعالى، وذلك بعد ستة عشر شهرًا من هجرته ﷺ إلى المدينة[٢]، بقي حائط القبلة الأولى في مؤخرة المسجد النبوي، فأمر النبي ﷺ به فظلل أو سقف، وأطلق عليه اسم «الصُّفَّة» أو «الظُّلة»[٣] ولم يكن له مايستر جوانبه[٤].

---

(١) كذا وردت ألفاظ هاتين الخطبتين عن الإمام ابن إسحاق بالطبعة المحققة المضبوطة التي بين أيدينا وهي: السيرة النبوية لابن هشام: (ق ١/ ٥٠١، ٥٠٢) [انظر فهرس المراجع]، وانظر شرح الإمام السهيلي لبعض الضمائر والحروف الواردة بالخطبة الثانية؛ لتقف على المعاني المناسبة (الروض الأنف ٢/ ٢٥٠) «المراجع».

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري، (١/ ٢٥٧).

(٣) انظر: وفاء الوفاء للسمهودي، (١/ ٣٢١).

(٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٥٨).

قال القاضي عياض: الصفة ظُلة في مؤخر مسجد رسول الله ﷺ يأوي إليها المساكين وإليها يُنسب أهل الصفة[١].

وقال ابن تيمية: الصفة كانت في مؤخرة مسجد النبي ﷺ في شمالي المسجد بالمدينة المنورة[٢].

وقال ابن حجر: الصفة مكان في مؤخر المسجد النبوي مظلل أعد لنزول الغرباء فيه ممن لا مأوى له ولا أهل[٣].

١ ـ أهل الصُّفَّة:

قال أبو هريرة: «وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا على أحد»[٤].

إن المهاجرين الأوائل الذين هاجروا قبل النبي ﷺ، أو معه، أو بعده حتى نهاية الفترة الأولى قبل غزوة بدر، استطاع الأنصار أن يستضيفوهم في بيوتهم، وأن يشاركوهم النفقة، ولكن فيما بعد كبر حجم المهاجرين مما لم يعد هناك قدرة للأنصار على استيعابهم[٥].

فقد «صار المهاجرون يكثرون بعد ذلك شيئًا بعد شيء، فإن الإسلام صار ينتشر والناس يدخلون فيه.. ويكثر المهاجرون إلى المدينة من الفقراء والأغنياء، والآهلين والعُزَّاب، فكان من لم يتيسر له مكان يأوي إليه، يأوي إلى تلك الصُّفة في المسجد»[٦].

والذي يظهر للباحث أن المهاجر الذي يقدم إلى المدينة كان يلتقي بالرسول ﷺ ثم يوجهه بعد ذلك إلى من يكفله، فإن لم يجد فإنه يستقر في الصفة مؤقتًا، ريثما يجد السبيل[٧]. فقد جاء في المسند عن عبادة بن الصامت قال: «كان رسول الله ﷺ يُشغل فإذا قدم رجل مهاجر على رسول الله ﷺ دفعه إلى رجل منا يعلمه القرآن، فدفع إليَّ رسول الله ﷺ رجلاً، وكان معي في البيت أُعشِّيه عشاءَ أهل البيت، فكنت أُقرئه القرآن»[٨]. وقد كان أول من نزل الصُّفة المهاجرون[٩]، لذلك نسبت إليهم فقيل صفة المهاجرين[١٠]، وكذلك كان ينزل

(١) انظر: نظام الحكومة النبوية المسمى: التراتيب الإدارية، لعبد الحي الكتاني (١/ ٤٧٤).

(٢) الفتاوى: (١١/ ٣٨).

(٣) انظر: فتح الباري (١/ ٥٣٥، ٦/ ٥٩٥).

(٤) البخاري، رقم (٦٤٥٢).

(٥) انظر: السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة للشامي (ص ١٧٥).

(٦) الفتاوى: (١١/ ٤٠، ٤١).

(٧) انظر: السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة (ص ١٧٥).

(٨) المسند: (٥/ ٣٢٤).

(٩) انظر: وفاء الوفاء للسمهودي (١/ ٣٢٣).

(١٠) سنن أبي داود (٢/ ٣٦١).

بها الغرباء من الوفود التي كانت تقدم على النبي ﷺ معلنة إسلامها وطاعتها[١]، وكان الرجل إذا قدم على النبي ﷺ وكان له عريف نزل عليه، وإذا لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصفة[٢]، وكان أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ عَرِيفَ من سكن الصُّفة من القاطنين، ومن نزلها من الطارقين، فكان النبي ﷺ إذا أراد دعوتهم عهد إلى أبي هريرة فدعاهم لمعرفته بهم، وبمنازلهم ومراتبهم في العبادة والمجاهدة[٣]. ونزل بعض الأنصار في الصُّفة حبًّا لحياة الزهد والمجاهدة والفقر على الرغم من استغنائهم عن ذلك. ووجود دار لهم في المدينة، ككعب بن مالك الأنصاري، وحنظلة بن أبي عامر الأنصاري (غَسيل الملائكة)، وحارثة بن النعمان الأنصاري، وغيرهم[٤].

٢ ـ نفقة أهل الصُّفَّة ورعاية النبي ﷺ والصحابة لهم:

كان النبي ﷺ يتعهد أهل الصفة بنفسه، فيزورهم ويتفقد أحوالهم ويعود مرضاهم، كما كان يكثر مجالستهم، ويرشدهم ويواسيهم ويذكرهم ويعلمهم يوجههم إلى قراءة القرآن الكريم ومدارسته، وذكر الله والتطلع إلى الآخرة[٥]، وكان ﷺ يؤمِّن نفقتهم بوسائل متعددة ومتنوعة منها:

أ ـ إذا أتته ﷺ صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئًا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها.

ب ـ كثيرًا ما كان يدعوهم إلى تناول الطعام في إحدى حجرات أمهات المؤمنين ـ رضي الله عنهن ـ ولم يكن يغفل عنهم مطلقًا، بل كانت حالتهم ماثلة أمامه، فعن عبد الرحمٰن بن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ قال: إن أصحاب الصُّفة كانوا أناسًا فقراء، وإن النبي ﷺ قال مرّة: «من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس أو سادس ـ أو كما قال ـ وأن أبا بكر جاء بثلاثة، وانطلق النبي ﷺ بعشرة...»[٦].

جـ ـ كما كان ﷺ يقدم حاجتهم على غيرها مما يطلب منه، فقد أُتي بسبي مرة فأتته فاطمة ـ رضي الله عنها ـ تسأله خادمًا، فكان جوابه ـ كما في المسند عند الإمام أحمد ـ: «والله لا أُعطيكما وأَدَعُ أهل الصُّفة تَطْوَى بطونُهم لا أجد ما أنفق عليهم، ولكني أبيعُهم وأنفق عليهم أثمانَهم»[٧].

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/٢٥٨).
(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/٢٥٩).
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) المصدر السابق (١/٢٦٦).
(٦) البخاري برقم (٣٥٨١)، واللفظ له، ومسلم برقم (٢٠٥٧).
(٧) أصل الحديث في البخاري برقم (٣١١٣)، وهذا لفظ المسند (١/١٠٦، برقم ٨٣٨).

٣ ـ انقطاعهم للعمل والعبادة والجهاد:

كان أهل الصفة يعتكفون في المسجد للعبادة، ويألفون الفقر والزهد، فكانوا في خلواتهم يصلون ويقرأون القرآن ويتدارسون آياته، ويذكرون الله تعالى، ويتعلم بعضهم الكتابة حتى أهدى أحدهم قوسه لعبادة بن الصامت ـ ﵁ ـ لأنه كان يعلمهم القرآن والكتابة[١].

وكان أهل الصفة يشاركون في الجهاد، بل كان منهم الشهداء، كما كانوا رهبانًا بالليل فرسانًا في النهار[٢]، وكان بعض الصحابة قد اختاروا المكوث في الصفة رغبة منهم لا اضطرارًا، كأبي هريرة ـ ﵁ ـ فقد أحب أن يلازم رسول الله ﷺ ويعوض مافاته من العلم والخير، وهذا لا يتوافر له إلا إذا كان قريبًا من بيت النبي ﷺ. قال أبو هريرة ـ ﵁ ـ: «إنكم تقولون إن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ﷺ، وتقولون: ما بال المهاجرين والأنصار لا يحدثون عن رسول الله ﷺ، بمثل حديث أبي هريرة، وإن إخوتي من المهاجرين كان يشغلهم صَفَقٌ بالأسواق، وكنت ألزم رسول الله ﷺ على ملء بطني، فأشهد إذا غابوا، وأحفظ إذا نسوا، وكان يشغل إخوتي من الأنصار عمل أموالهم، وكنت امرءًا مسكينًا من مساكين الصُّفة، أعي حين يَنسَون»[٣]. وهكذا يوضح ـ ﵁ ـ أنه فعل ذلك رغبة منه في ملازمة النبي ﷺ ثم إن أبا هريرة كان له سكن في المدينة، وهو المكان الذي تسكنه أمه، والتي طلب من النبي ﷺ أن يدعو لها بالهداية[٤]، ثم إن أبا هريرة لم يكن فقيرًا معدمًا، ففي أول يوم قدم فيه على النبي ﷺ في خيبر، أسهم له ﷺ من الغنيمة كما أنه لما قدم كان معه عبد يخدمه كما ورد في الصحيح[٥]. إذن فالذي أفقره هو إيثاره ملازمة النبي ﷺ، واستماع أحاديثه، وكان يستطيع الاستغناء عن الصُّفة لو أراد[٦].

كان أهل الصُّفة يكثرون ويقلّون بحسب تبدل الأحوال التي تحيط بأهل الصُّفة من عودة الأهل، أو زوج، أو يسر بعد عُسر، أو شهادة في سبيل الله.

ولم يكن فقرهم لقعودهم عن العمل وكسب الرزق، فقد ذكر الزمخشري أنهم كانوا يرضخون النوى بالنهار، ويظهر أنهم كانوا يرضخون النوى ـ يكسرونه ـ لعلف الماشية، وهم ليسوا أهل ماشية، فهم إذن يعملون لكسب الرزق[٧].

---

(١) سنن أبي داود: ٢/ ٢٣٧، وابن ماجه: (٢/ ٧٣٠).

(٢) السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٦٤).

(٣) البخاري رقم (٢٠٤٧) واللفظ له، مسلم رقم (٢٤٩٢).

(٤) مسلم برقم (٢٤٩١).

(٥) انظر: السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة (ص ١٨٤).

(٦) المصدر نفسه (ص ١٨٤).

(٧) انظر: المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدي، لشُرَّاب (١/ ٢٢٢).

٤ ـ عددهم وأسماؤهم:

كان عددهم يختلف باختلاف الأوقات، فهم يزيدون إذا قدمت الوفود إلى المدينة ويقلّون إذا قل الطارقون من الغرباء، على أن عدد المقيمين منهم في الظروف العادية كان في حدود السبعين رجلاً(١)، وقد يزيد عددهم كثيرًا حتى أن سعد بن عبادة كان يستضيف وحده ثمانين منهم فضلاً عن الآخرين الذين يتوزعهم الصحابة(٢)، ومن أراد الوقوف على بعض أسمائهم فليرجع إلى كتب السيرة(٣).

وقد وقع بعض الباحثين في خطأ فادح حيث استدل على مشروعية مسلك بعض المنحرفين من المتصوفة، من حيث ترك العمل والإخلاد إلى الراحة والكسل، والمكوث في الزوايا والتكايا، بحجة الاقتداء بحال أهل الصُّفة(٤). إن أبا هريرة ـ رضي الله عنه ـ وهو أكثر ارتباطًا بالصُّفة من غيره لم يستمر فيها، وخرج إلى الحياة بل أصبح أميرًا في بعض أيامه على البحرين في عهد عمر بن الخطاب، ولم يكن مخشوشنًا في حياته(٥)، بل إن أهل الصُّفة كانوا من المجاهدين في سبيل الله في ساحات القتال، وقد استشهد بعضهم كما ذكرت.

خامسًا: فوائد ودروس وعبر:

١ ـ المسجد من أهم الركائز في بناء المجتمع:

إن إقامة المساجد من أهم الركائز في بناء المجتمع الإسلامي، ذلك أن المجتمع المسلم إنما يكتسب صفة الرسوخ والتماسك، بالتزام نظام الإسلام وعقيدته وآدابه، وإنما ينبع ذلك من روح المسجد ووحيه(٦).

قال تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: الآية ١٠٨].

قال تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النُّور: الآيات ٣٦ ـ ٣٨].

---

(١) انظر: الحلية. أبو نُعيم (١/ ٣٣٩، ٣٤١).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٣٤١).

(٣) على سبيل المثال: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٦٢، ٢٦٣).

(٤) انظر: السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة (ص ١٨٦).

(٥) المصدر نفسه (ص ١٨٨).

(٦) انظر: فقه السيرة للبوطي (ص ٢٠٣ أو ١٤٣ط/ أخرى) بتصرف.

٢ ـ المسجد رمز لشمولية الإسلام:

أ ـ حيث «أُنشىء ليكون متعبَدًا لصلاة المؤمنين، وذكرهم لله تعالى وتسبيحهم له، وتقديسهم إِياه بحمده وشكره على نعمه عليهم، يدخله كل مسلم، ويقيم فيه صلاته وعبادته، ولا يضاره أحد ما دام حافظًا لقداسته، ومؤديًا حق حرمته»(١).

ب ـ كما «أُنشىء المسجد ليكون ملتقى رسول الله ﷺ بأصحابه، والوافدين عليه، طلبًا للهداية، ورغبة في الإِيمان بدعوته وتصديق رسالته»(١).

ج ـ «وهو قد أنشىء ليكون جامعة للعلوم والمعارف الكونية، والعقلية، والتنزلية التي حث القرآن الكريم على النظر فيها، وليكون مدرسة يتدارس فيها المؤمنون أفكارهم، وثمرات عقولهم ومعهدًا يَؤُمُّه طلاب العلم من كل صوب، ليتفقهوا في الدين ويرجعوا إِلى قومهم مبشرين ومنذرين، داعين إِلى الله هادين، يتوارثونها جيلاً بعد جيل»(١).

د ـ وهو «قد أنشىء ليجد فيه الغريب مأوى، وابن السبيل مستقرًا، لا تكدره منّة أحد عليه، فينهل من رفده، ويعب من هدايته ما أطاق استعداده النفسي والعقلي، لا يصده أحد عن علم أو معرفة، أو لون من ألوان الهداية، فكم من قائد تخرج فيه، وبرزت بطولته من بين جدرانه، وكم من عالم استبحر علمه في رحابه، ثم خرج به على الناس يروي ظمأهم للمعرفة، وكم من داع إِلى الله تلقى في ساحاته دروس الدعوة إِلى الله، فكان أسوة الدعاة، وقدوة الهداة، وريحانةً جَذَبَ القلوبَ شذاها فانجفلت إِليها تأخذ عنها الهداية لتستضيء بأنوارها؟»(٢).

وكم من أعرابي جلْف لا يفرق بين الأحمر والأصفر، وفد عليه فدخله ورأى أصحاب رسول الله ﷺ حوله هالةً تحف به، يسمعون منه وكأن على رؤوسهم الطير، فسمع معهم، وكانت عنده نعمة العقل مخبأة تحت ستار الجهالة، فانكشف له غطاء عقله، فعقل وفقه، واهتدى واستضاء، ثم عاد إِلى قومه إِمامًا يدعوهم إِلى الله، ويربيهم بعلمه الذي علم، وسلوكه الذي سلك، فآمنوا بدعوته، واهتدوا بهديه، فكانوا سطرًا منيرًا في كتاب التاريخ الإِسلامي»(٣).

هـ ـ وهو «قد أُنشىء ليكون قلعة لاجتماع المجاهدين إِذا استنفروا، تعقد فيه ألوية الجهاد، والدعوة إِلى الله، وتخفق فيه فوق رؤوس القادة الرايات للتوجه إِلى مواقع الأحداث، وفي

---

(١) انظر: محمد رسول الله، محمد عرجون (٣/ ٣٣).

(٢) المصدر نفسه (٣/ ٣٤).

(٣) انظر: محمد رسول الله، محمد عرجون (٣/ ٣٤، ٣٥).

ظلها يقف جند الله في نشوة ترقب النصر أو الشهادة»[١].

و - وهو «قد أُنشىء ليجد فيه المجتمع المسلم الجديد ركنًا في زواياه، ليكون مشفى يستشفى فيه جرحى كتائب الجهاد، ليتمكن نبي الله ﷺ من عيادتهم والنظر في أحوالهم، والاستطباب لهم ومداواتهم في غير مشقة ولا نصب، تقديرًا لفضلهم»[١].

ز - «وهو قد أُنشىء ليكون مبردًا لبريد الإِسلام، منه تصدر الأخبار، ويبرد البريد، وتصدر الرسائل، وفيه تُتلقى الأنباء السياسية سلمًا أو حربًا، وفيه تُتلقى وتُقرأ رسائل البشائر بالنصر، ورسائل طلب المدد، وفيه ينعي المستشهدون في معارك الجهاد، ليتأسى بهم المتأسون وليتنافس في الاقتداء بهم المتنافسون»[١].

ح - «وهو قد أُنشىء ليكون مرقبًا للمجتمع المسلم، يتعرف منه على حركات العدو المريبة ويرقبها، ولا سيما الأعداء الذين معه يساكنونه ويخالطونه في بلده من شراذم اليهود، وزمر المنافقين، ونفايات الوثنية الذين عَسَوا[٢] في الشرك فلم يتركوه، ليعذر المجتمع المسلم عاقبة كيدهم وسوء مكرهم وتدبيرهم، ويأمن مغبة غدرهم وخياناتهم»[٣].

فالمسجد النبوي «بدأ بتأسيسه وبنائه رسول الله ﷺ أول ما بدأ من عمل في مستقره، ودار هجرته في مطلع مقدمه ليكون نموذجًا يُحتذى في بساطة المظهر، وعمق وعموم المخبر ليحقق به أعظم الأهداف، وأعمها بأقل النفقات وأيسر المشقات»[٤].

* ومن الفوائد والدروس والعبر:

٣ ـ التربية بالقدوة العملية:

من الحقائق الثابتة أن النبي ﷺ شارك أصحابه العمل والبناء، فكان يحمل الحجارة، وينقل اللَّبِن على صدره وكتفيه، ويحفر الأرض بيده كأي واحد منهم، فكان مثال الحاكم العادل الذي لا يفرّق بين رئيس ومرؤوس، أو بين قائد ومقود، أو بين سيد ومسود، أو بين غني وفقير، فالكل سواسية أمام الله، لافرق بين عربي ولا أعجمي إِلا بالتقوى، ذلك هو الإِسلام. عدالة ومساواة في كل شيء، والفضل فيه يكون لصاحب العطاء في العمل الجماعي للمصلحة العامة، وبهذا الفضل ثواب من الله، والرسول ﷺ كغيره من المسلمين لا يطلب إِلا ثواب الله[٥]. فقد كانت مشاركة

---

(١) انظر: المصدر السابق (٣/ ٣٥).

(٢) عَسَوا: أَسنُّوا وكَبِروا.

(٣) محمد رسول الله: محمد عرجون (٣/ ٣٦).

(٤) المصدر السابق (٣/ ٣٣).

(٥) انظر: التاريخ السياسي والعسكري، د. علي معطي (ص ١٥٨).

النبي ﷺ في عملية البناء ككل العمال الذين شاركوا فيه، وليس بقطع الشريط الحريري فقط، وليس بالضربة الأولى بالفأس فقط، بل غاص بعملية البناء كاملة، فقد دهش المسلمون من النبي ﷺ وقد علته غَبرة، فتقدم أسيد بن حضير - رضي الله عنه - ليحمل عن رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أعطنيه؟ فقال: «اذهب فاحتمل غيره، فإنك لست بأفقر إلى الله مني»(١)، فقد سمع المسلمون ما يقول النبي ﷺ فازدادوا نشاطًا واندفاعًا في العمل(٢).

إنه مشهد فريد من نوعه، ولا مثيل له في دنيا الناس، وإذا كان الزعماء والحكام قد يقدمون على المشاركة أحيانًا بالعمل لتكون شاشات التلفاز جاهزة لنقل أعمالهم، وتملأ الدنيا في الصحف ووسائل الإعلام كلها بالحديث عن أخلاقهم، وتواضعهم، فالنبي ﷺ ينازع الحجر أحد أفراد المسلمين، ويبين له أنه أفقر إلى الله تعالى، وأحرص على ثوابه منه.

وقد تفاعل الصحابة الكرام تفاعلاً عظيمًا في البناء، وأنشدوا هذا البيت:

لـئـن قـعـدنـا والـنـبـيُّ يـعـمـلُ ... لَـذَاك مـنـا الـعـمـلُ الـمـضـلَّلُ(٣)

إن هذه التربية العملية لاتتم من خلال الموعظة، ولا من خلال الكلام المنمق، إنما تتم من خلال العمل الحي الدَّءُوب، والقدوة المصطفاة من رب العالمين، والتي ما كان يمكن أن تتم في أجواء مكة، والملاحقة والاضطهاد والمطاردة فيها، إنما تتم في هذا المجتمع الجديد، والدولة التي تبنى، وكأنما غدا هذا الجمع من الصحابة الكرام كله صوتًا واحدًا، وقلبًا واحدًا فمضى يهتف:

لا عـيـش إلا عـيـش الآخـرة ... اللَّهم ارحم الأنصار والمهاجرة

ويهتفون بلحن واحد:

لـئـن قـعـدنـا والـنـبـي يـعـمـلُ ... لـذاك مـنـا الـعـمـل الـمـضـلَّلُ

وكان الهتاف الثالث:

هـذي الـحِـمـال لا حـمـال خـيـبـر ... هـذا أبـر لـربـنـا وأطـهـر(٤)

فأحمال التمر والزبيب من خيبر إلى المدينة كانت لها مكانتها في المجتمع اليثربي، أصبحت لا تذكر أمام حمل الطوب لبناء المسجد النبوي العظيم، فقد أيقنوا: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا

(١) انظر: صور من حياة الرسول، أمين دويدار (ص ٢٦١).

(٢) انظر: التاريخ السياسي والعسكري، د. علي معطي (ص ١٥٨).

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/٤٩٦).

(٤) انظر: التربية القيادية، منير الغضبان (٢/ ٢٤٩).

عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ﴾ [النّحل: الآية ٩٦].

وأما الهتاف الرابع:

لا يستوي من يَعْمُرُ المساجدا يدأب فيه قائماً وقاعدا
ومن يُرَى عن الغبار حائدًا[١]

* كذلك أيضًا من الفوائد والدروس والعبر:

٤ ـ الاهتمام بالخبرة والاختصاص:

ورد في بعض الروايات اسم الصحابي (طَلْق بن علي اليمامي الحنفي) رضي الله عنه، أنه كان يحسن خلط الطين عند بناء المسجد النبوي الشريف، ومن أَمْثَل هذه الروايات ما جاء في (جامع الأصول) لابن الأثير بعد أن أورد حديث البخاري في كتاب الصلاة ـ باب التعاون في بناء المسجد، برقم (٤٤٧)، وفي كتاب الجهاد باب ـ مسح الغبار عن الرأس.. برقم (٢٨١٢)، قال ابن الأثير: قال رَزِين: وجاء رجل كان يحسن عجن الطين، وكان من حضرموت، فقال رسول الله ﷺ: «رحم الله امرءًا أحسن صنعته» وقال له: «الزم أنت هذا الشغل فإني أراك تحسنه»[٢].

فقد اهتم النبي ﷺ بهذا الوافد الجديد على المدينة، والذي لم يكن من المسلمين الأوائل، ووظف خبرته في خلط الطين، وفي قوة العمل، وهو درس للمسلمين في الثناء على الكفاءات، والاستفادة منها، وإرشاد نبوي كريم في كيفية التعامل معها وما أحوجنا إلى هذا الفهم العميق[٣].

٥ ـ شعار الدولة المسلمة:

إن أذان الصلاة شعار لأول دولة إسلامية عالمية: (الله أكبر.. الله أكبر) إنها تعني أن الله

(١) المصدر السابق نفسه: (٢/٢٤٩).

(٢) انظر: جامع الأصول لابن الأثير، تحقيق الشيخ عبد القادر الأرناؤوط (جـ ١١/ ١٨٤، ح رقم ٨٧١٦) أما عن الروايات الأخرى التي ورد فيها ذكر عجَن الطين وإحسانه له؛ ففي أسانيدها كلام للعلماء، يمكن الرجوع إليها في: الرواية الأولى من مجمع الزوائد (٢/ ٩) مع ملاحظة أن الإمام الهيثمي عزاه للإمام أحمد، وللطبراني في الكبير، ووثق رجاله، ولم أجده في مسند الإمام أحمد في مسند سيدنا طلق كله، وأيضًا لم أجده في الطبراني في الكبير في مسند سيدنا طلق بهذا اللفظ، وإنما بألفاظ أخرى وأرقام الطبراني هي (٨٢٣٣ـ ٨٢٦٣) (جـ ٨/ ٣٩٦ـ ٤٠٦). وارجع أيضًا إلى: سنن الدارقطني ـ تعليق أبي الطيب العظيم أبادي (جـ ١/ ١٤٨، ١٤٩ ح رقم ١٤)، الإصابة لابن حجر عند ترجمة سيدنا طلق برقم (٤٣٠٢)، المغازي للذهبي ـ تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (ص ٣٧)، طبقات ابن سعد (٥/ ٥٥٢) ـ «المراجع».

(٣) انظر: التربية القيادية، منير الغضبان (٢/ ٢٥٢) بتصرف.

أكبر من أولئك، وأكبر من صانعي العقبات، وهو الغالب على أمره.

* **(أشهد أن لا إله إلا الله)** أي لا حاكمية، ولا سيادة، ولا سلطة إلا لله رب العالمين. «إنْ الحكم إلا لله» فمعنى لا إله إلا الله: لا حاكم ولا آمر ولا مُشرّع مطلقًا إلا الله.

* **(أشهد أن محمدًا رسولُ الله)** أسلمه الله تعالى القيادة، فليس لأحد أن ينزعها منه، فهو ماضٍ بها إلى أن يُكمل الله دينه بما ينزله على رسوله من قرآن، وبما يلهمه إياه من سُنّة[١]، ويعني الاعتراف لرسول الله بالرسالة، والزعامة الدينية والدنيوية والسمع والطاعة له[٢].

* **(حي على الصلاة.. حي على الفلاح)** أقبل يا أيها الإنسان للانضواء تحت لواء هذه الدولة التي أخلصت لله، وجعلت من أهدافها تمتين العلاقة بين المسلم وخالقه، وتمتين العلاقة بين المؤمنين على أساس من القيم السامية.

* **(قد قامت الصلاة)** وقد اختيرت الصلاة من بين سائر العبادات لأنها عماد الدين كله، ولأنها بما فيها من الشعائر كالركوع والسجود والقيام أعظم مظهر لمظاهر العبادة بمعناها الواسع التي تعني: الخضوع والتذلل والاستكانة فهي خضوع ليس بعده خضوع، فكل طاعة لله على وجه الخضوع والتذلل فهي عبادة وهي طاعة العبد لسيده، فيقف بين يديه قد أسلم نفسه طاعة وتذللًا. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: الآية ٦٦].

وهذا الارتباط بين شعار الدولة الرسمي بحاكمية الله وسيادة الشرع، وسقوط الطواغيت وقوانينهم وأنظمتهم وشرائعهم بـ (حي على الفلاح.. قد قامت الصلاة) يشير إلى أنه لا قيام للصلاة، ولا إقامة لها كما ينبغي إلا في ظل دولة تقوم عليها، وتقوم بها ولها، فقد كان المسلمون يُصلُّون خُفيةً في شعاب مكة قبل قيام دولتهم، أمّا وقد قامت تحت حماية سيوف الأنصار فليجهروا بالأذان والإقامة، وليركعوا وليسجدوا لله رب العالمين.

إن الواقع التاريخي خير شاهد على أن الله لا يعبد في الأرض حق عبادته إلا في ظل دولة قوية، تحمي رعاياها من أعداء الدين.

ثم تتكرر كلمات الأذان (الله أكبر.. الله أكبر) للتأكيد على المعاني السابقة[٣].

إننا بحاجة ماسة لفهم الأذان، وإدراك معانيه والعمل على ترجمته ترجمة عملية لنجاهد في الله حق جهاده، حتى نُدمِّر شعارات الكفر، ونرفع شعارات الإيمان ونقيم دولة التوحيد التي تحكم بشرع الله ومنهجه القويم.

---

(١) انظر: قراءة سياسية للسيرة النبوية، د. محمد قلعجي (ص ١١٤).

(٢) انظر: دولة الرسول ﷺ من التكوين إلى التمكين، د. كامل سلامة الدقس (ص ٤٣٨).

(٣) انظر: دولة الرسول ﷺ من التكوين إلى التمكين (ص ٤٣٩).

فضائل المسجد النبوي:

تحدث النبي ﷺ عن فضائل المسجد النبوي العظيمة؛ ولذلك تعلق الصحابة به. ويمكننا الرجوع إلى صحيحي البخاري ومسلم وغيرهما؛ للوقوف على هذه الفضائل الميمونة. وسنذكر هنا حديثًا واحدًا لمعناه العميق الذي نحتاجه ونستمسك به وهو عن:

٧ ـ فضل التعلم والتعليم في المسجد النبوي:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من دخل مسجدنا هذا ليتعلم خيرًا أو يُعَلمه كان كالمجاهد في سبيل الله، ومن دخله لغير ذلك كان كالناظر إِلى ما ليس له»(١).

المبحث الثاني

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

كان من أولى الدعائم التي اعتمدها الرسول ﷺ في برنامجه الإِصلاحي والتنظيمي للأمة وللدولة والحكم: الاستمرار في الدعوة إِلى التوحيد، والمنهج القرآني، وبناء المسجد، وتقرير المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وهي خطوة لا تقل أهمية عن الخطوة الأولى في بناء المسجد، لكي يتلاحم المجتمع المسلم ويتآلف وتتضح معالم تكوينه(٢) الجديد.

كان مبدأ التآخي العام بين المسلمين قائمًا منذ بداية الدعوة، في عهدها المكي، ونهى الرسول ﷺ عن كل ما يؤدي إِلى التباغض بين المسلمين، فقال ﷺ: «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تَدَابروا، وكونوا عباد الله إِخوانًا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام»(٣).

وقال ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه(٤)، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربة(٥) فرّج الله ـ عز وجل ـ عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة»(٦).

وقد أكد القرآن الكريم الأُخوة العامة بين أبناء الأمة في قوله تعالى:

---

(١) انظر: المصنف لابن أبي شيبة (٢/ ٣٧١، ١٢/ ٢٠٩ـ٢٠٩ رقم ١٢٥٦٧)، وأخرجه الحاكم (١/ ٩١) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، فقد احتجا بجميع رواته ثم لم يخرجاه، ولا أعلم له علة» وأورد الحاكم شاهدًا له عَقِبَه، وقال عنه الذهبي: على شرط (خ).

(٢) انظر: الإِدارة الإِسلامية في عصر عمر بن الخطاب، د. مجدلاوي (ص ٥٢، ٥٣).

(٣) البخاري رقم (٦٠٦٥)، واللفظ له، ومسلم رقم (٢٥٥٩).

(٤) أي لا يتركه مع من يؤذيه ولا فيما يؤذيه، بل ينصره ويدفع عنه.

(٥) كربة: أي غُمة.

(٦) البخاري، رقم (٢٤٤٢) واللفظ له، والمسند: (٢/ ٩١ ورقمه ٥٦٤٦).

obeikandi.com

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: الآية ١٠٣].

وقوله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ٦٣].

أما موضوع هذا البحث، فهو المؤاخاة الخاصة التي شرعت وترتبت عليها حقوق وواجبات أخص من الحقوق والواجبات العامة بين المؤمنين كافة[١].

وقد تحدث بعض العلماء عن وجود مؤاخاة كانت في مكة بين المهاجرين، فقد أشار البلاذُرِيّ إلى أن النبي ﷺ آخى بين المسلمين في مكة، قبل الهجرة على الحق والمواساة، فآخى بين حمزة وزيد بن حارثة، وبين أبي بكر وعمر، وبين عثمان بن عفان وعبد الرحمٰن بن عوف، وبين الزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود، وبين عبيدة بن الحارث وبلال الحبشي، وبين مصعب بن عمير وسعد بن أبي وقاص، وبين أبي عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبي حذيفة، وبين سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وطلحة بن عُبيد الله، وبينه وبين علي بن أبي طالب[٢]. ويُعتبر البَلاذُرِي (ت ٢٧٦هـ) أقدم من أشار إلى المؤاخاة المكية، وقد تابعه في ذلك ابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ) دون أن يصرح بالنقل عنه، كما تابعهما ابن سيد الناس دون التصريح بالنقل عن أحدهما[٣]، وقد أخرج الحاكم في المستدرك من طريق جميع بن عمير عن ابن عمر: «آخى رسول الله ﷺ بين أبي بكر وعمر، وبين طلحة والزبير، وبين عبد الرحمٰن بن عوف وعثمان»[٤]، وعن ابن عباس: «آخى النبي ﷺ بين الزبير وابن مسعود»[٥].

وذهب كل من ابن القيم وابن كثير إلى عدم وقوع المؤاخاة بمكة، فقال ابن القيم: «وقد قيل إنه ـ أي النبي ﷺ ـ آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض، مؤاخاة ثانية، واتخذ فيها عليًّا أخًا لنفسه، والثبت الأول[٦]، والمهاجرون كانوا مستغنين بأخوة الإسلام وأخوة الدار وقرابة النسب عن عقد مؤاخاة بخلاف المهاجرين مع الأنصار»[٧]، أما ابن كثير فقد ذكر أن

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ٢٤٠).

(٢) أنساب الأشراف للبلاذري (١/ ٢٧٠).

(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٤٠).

(٤) المصدر نفسه، (١/ ٢٤٠).

(٥) فتح الباري، (٧/ ٣٠٤)، ط/ دار المنار.

(٦) يعني المؤاخاة في المدينة.

(٧) زاد المعاد (٢/ ٧٩).

من العلماء من ينكر هذه المؤاخاة للعلة نفسها التي ذكرها ابن القيم[١].

لم تشر كتب السيرة الأولى المختصة إلى وقوع المؤاخاة بمكة، والبلاذري ساق الخبر بلفظ «قالوا» دون إسناد مما يضعف الرواية، كما أن البلاذري نفسه ضعفه النقاد، وعلى فرض صحة هذه المؤاخاة بمكة فإنها تقتصر على المؤازرة والنصيحة بين المتآخيين دون أن تترتب عليها حقوق التوارث[٢].

أولاً: المؤاخاة في المدينة:

ساهم نظام المؤاخاة في ربط الأمة بعضها ببعض، فقد أقام الرسول ﷺ هذه الصلة على أساس الإخاء الكامل بينهم، هذا الإخاء الذي تذوب فيه عصبيات الجاهلية، فلا حمية إلا للإسلام، وتسقط به فوارق النسب واللون والوطن، فلا يتأخر أحد أو يتقدم إلا بمروءته وتقواه.

وقد جعل الرسول ﷺ هذه الأخوة عقدًا نافذًا لا لفظًا فارغًا، وعملاً يرتبط بالدماء والأموال، لا تحية تثرثر بها الألسنة ولا يقوم لها أثر.

وكانت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة تمتزج في هذه الأخوة وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال[٣].

والسبب الذي أدى إلى تقوية هذه الأخوة بين المهاجرين والأنصار، هو أن أهل هذا المجتمع ممن التقوا على دين الله وحده، نَشَّأهم دينهم الذي اعتنقوه على أن يقولوا ويفعلوا، وعلَّمهم الإيمان والعمل جميعًا، فهم أبعد ما يكونون عن الشعارات التي لا تتجاوز أطراف الألسنة. وكانوا على النحو الذي حكاه الله عنهم في قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النُّور: الآية ٥١].

وبذلك الذي درج عليه المسلمون كفل البقاء والاستمرار لهذه الأخوة، التي شد الله بها أزر دينه ورسوله، حتى آتت ثمارها في كل أطوار الدعوة طوال حياته ﷺ، وامتد أثرها حتى وفاته ﷺ، وبقيت هذه المؤاخاة عند مبايعة الصديق ـ رضي الله عنه ـ ولم يُحدث الأنصار صدعًا في شمل الأمة مستجيبين في ذلك لشهوات السلطة، وغريزة السيطرة؛ لذلك فإن سياسة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار نوع من السبق السياسي الذي اتبعه رسول الله ﷺ في تأصيل المودة، وتمكينها في مشاعر المهاجرين والأنصار الذين سهروا جميعًا على رعاية هذه المودة،

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن كثير.

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٤١).

(٣) انظر: فقه السيرة للغزالي (ص ١٩٣، ١٩٤).

obeikandi.com

وذلك الإخاء، بل كانوا يتسابقون في تنفيذ بنوده[١]، ولا سيما الأنصار الذين لا يجد الكُتّاب والباحثون مهما تساموا إلى ذروة البيان خيرًا من حديث الله عنهم[٢] قال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: الآية ٩].

*** بعض أسماء المهاجرين والأنصار ممن تآخوا في الله:**

أبو بكر الصديق - ﷺ - وخارجة بن زهير، عمر بن الخطاب وعِتْبان بن مالك، أبو عبيدة بن الجراح وسعد بن معاذ، عبد الرحمٰن بن عوف وسعد بن الربيع، الزبير بن العوام وسلامة بن سلامة بن وَقْش، طلحة بن عُبيد الله وكعب بن مالك، سعيد بن زيد وأُبَيّ بن كعب، مصعب بن عمير وأبو أيوب خالد بن زيد، أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وعبَّاد بن بشر بن وَقْش، عمار بن ياسر وحذيفة بن اليَمان، أبو ذر الغفاري والمنذر بن عمرو، حاطب بن أبي بلتعة وعُوَيم بن ساعدة، سَلْمان الفارسي وأبو الدرداء، بلال مؤذن رسول الله ﷺ وأبو رُوَيحة عبد الله بن عبد الرحمٰن الخَثْعمي ﷺ»[٣].

ثانيًا: الدروس والعبر والفوائد:

١ - آصرة العقيدة هي أساس الارتباط:

إن المجتمع المدني الذي أقامه الإسلام كان مجتمعًا عقديًا يرتبط بالإسلام، ولا يعرف الموالاة إلا لله ولرسوله وللمؤمنين، وهو أعلى أنواع الارتباط وأرقاه، إذ يتصل بوحدة العقيدة والفكر والروح[٤].

إن الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين من أهم الآثار والنتائج المترتبة على الهجرة، وكان القرآن الكريم يربي المسلمين على هذه المعاني الرفيعة، فقد بيَّن الحق سبحانه وتعالى أن ابن نوح وإن كان من أهله باعتبار القرابة، لكنه لم يعد من أهله لَمَّا فارق الحق وكفر بالله، ولم يتبع نبي الله. قال تعالى:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ

---

(١) انظر: فصول في السيرة النبوية د. عبد المنعم السيد (ص ٢٠٠).

(٢) انظر: هجرة الرسول وصحابته في القرآن والسنة، للجمل (ص ٢٤٥).

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (ق ١/٥٠٥، ٥٠٦)، ط/ دار ابن كثير، السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٣٢٤).

(٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/٢٥٢).

obeikandl.com

ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هُود: ٤٥ ـ ٤٦].

وقد حصر الإِسلام الأخوة والموالاة بين المؤمنين فقط، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحُجرَات: ١٠].

وقطع الولاية بين المؤمنين والكافرين من المشركين واليهود والنصارى، حتى لو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو أبناءهم، ووصف من يفعل ذلك من المؤمنين بالظلم، مما يدل على أن موالاة المؤمنين للكافرين من أعظم الذنوب، قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبَة: ٢٣].

فإذا كان الله سبحانه يحذر المؤمنين من موالاة الكفار عامة، فهناك آيات كثيرة، وردت في تحذير المؤمنين ونهيهم عن طاعة أهل الكتاب خاصة أو اتخاذهم أولياء أو الركون إليهم[(١)].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المَائدة: ٥١].

وحدد المولى ﷻ للذين آمنوا جهة الولاء الوحيدة التي تتفق مع صفة الإِيمان، وبيّن لهم من يتولون، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المَائدة: ٥٥، ٥٦].

فقد فهم الصحابة أن ولاءهم لا يكون إلا لقيادتهم، وإخلاصهم لا يكون إلا لعقيدتهم، وجهادهم لا يكون إلا لإعلاء كلمة الله، فحققوا ذلك كله في أنفسهم وطبقوه على حياتهم، فمحضوا ولاءهم وجعلوه لله ورسوله والمؤمنين، وأصبح تاريخهم حافلاً بالمواقف الرائعة التي تدل على فهمهم العميق لمعنى الولاء الذي منحوه لخالقهم ولدينهم وعقيدتهم وإخوانهم.

إن التآخي الذي تم بين المهاجرين والأنصار كان مسبوقًا بعقيدة تم اللقاء عليها، والإِيمان بها، فالتآخي بين شخصين يؤمن كل منهما بفكرة أو عقيدة مخالفة للأخرى خرافة ووهم، خصوصًا إذا كانت تلك الفكرة أو العقيدة مما يحمل صاحبها على سلوك معين في الحياة العملية، ولذلك كانت العقيدة الإِسلامية التي جاء بها رسول الله ﷺ من عند الله تعالى هي

(١) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، أحزمي جزولي (ص ٤١٧).

العمود الفقري للمؤاخاة، التي حدثت، لأن تلك العقيدة تضع الناس كلهم في مصاف العبودية الخالصة لله دون الاعتبار لأي فارق إلا فارق التقوى والعمل الصالح، إذ ليس من المتوقع أن يسود الإخاء والتعاون والإيثار بين أناس فرقتهم العقائد والأفكار المختلفة، فأصبح كل منهم ملكًا لأنانيته وأثرته وأهوائه(١).

٢ ـ الحب في الله أساس بنية المجتمع المدني:

إن المؤاخاة على الحب في الله من أقوى الدعائم في بناء الأمة المسلمة، فإذا وهت يتآكل كل بنيانها(٢)، ولذلك حرص النبي ﷺ على تعميق معاني الحب في الله في المجتمع المسلم الجديد، فقد قال ﷺ: «إن الله ـ تعالى ـ يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي اليوم أظلهم في ظلّي يوم لا ظل إلا ظلي»(٣).

وكان للحب في الله أثره في المجتمع المدني الجديد، فعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: (كان أبو طلحة أكثرَ أنصاريٍّ بالمدينة نخلاً، وكان أحب أمواله إليه بَيْرُحَاءَ، وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب. فلما نزلت: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢] قام أبو طلحة فقال: يا رسول الله، إن الله يقول: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالي إليّ (بيرحاء)، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، قال رسول الله ﷺ: «ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعتُ ما قلتَ وإني أرى أن تجعلها في الأقربين» فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه)(٤).

وهذا عبد الرحمٰن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ يحدثنا عن هذه المعاني الرفيعة حيث قال: لَمَّا قدمنا المدينة آخى رسول الله ﷺ بيني وبين سعد بن الرَّبيع، فقال سعد بن الربيع: إني أكثر الأنصار مالاً فأقسم لك نصف مالي، وانظر أيَّ زوجتَيَّ هَوِيتَ نزلت لك عنها، فإذا حلَّت(٥) تزوجتَها، قال: فقال عبد الرحمٰن: لا حاجة لي في ذلك، هل من سوق فيه تجارة؟ قال: سوق قَيْنُقاع(٦)، قال: فغدا إليه عبد الرحمٰن... إلى آخر الحديث(٧).

---

(١) انظر: فقه السيرة للبوطي، (ص ١٤٨)، ط/ دار السلام.

(٢) انظر: محمد رسول الله، عرجون (٣/ ١٢٩).

(٣) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الحب في الله، ورقمه (٢٥٦٦).

(٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ٢٥٤) وانظر: البخاري، أرقام (٤٥٥٤، ١٤٦١، ٥٦١١)، ومواضع أخرى.

(٥) نزلت لك عنها: أي طلقتها لأجلك، فإذا حلت: أي انقضت عدتها.

(٦) قينقاع: قبيلة من اليهود نسب السوق إليهم.

(٧) البخاري: كتاب البيوع، رقم (٢٠٤٨).

*** ومن الدروس والعبر والفوائد:**

٣ ـ النصيحة بين المتآخين في الله:

فقد كان للمؤاخاة أثر في المناصحة بين المسلمين، فقد آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء مُتَبَذِّلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعامًا، فقال: كُلْ، قال: فإني صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، قال: فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم، فنام. ثم ذهب يقوم فقال: نم، فلما كان من آخر الليل، قال سلمان: قم الآن، فَصَليا، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقًّا، ولنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، فأعط كل ذي حق حقه، فأتى النبيَّ ﷺ فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: «صَدَقَ سلمان»[(١)].

٤ ـ لا، ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم:

كان الأنصار قد واسوا إخوانهم المهاجرين بأنفسهم وزادوا على ذلك بأن آثروهم على أنفسهم بخير الدنيا، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قالت الأنصار للنبي ﷺ: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: «لا»، فقالوا: تكفونا المؤونة وَنَشْرَكُكُم في الثمرة، فقالوا: سمعنا وأطعنا[(٢)].

فهذا الحديث يفيد أن الأنصار عرضوا على النبي ﷺ أن يتولى قسمة أموالهم بينهم وبين إخوانهم المهاجرين، وقد كانت أموالهم هي النخيل فأبى عليهم النبي ﷺ، وأراد أمرًا تكون فيه المواساة من غير إجحاف بالأنصار، بزوال ملكية أموالهم منهم، فقال الأنصار للمهاجرين: تكفونا المؤونة ـ أي العمل في النخيل من سقيها وإصلاحها ـ ونشرككم في الثمرة، فلما قالوا ذلك رأى رسول الله ﷺ أن هذا الرأي ضمن سد حاجة المهاجرين، مع الإرفاق بالأنصار فأقرهم على ذلك فقالوا جميعًا: سمعنا وأطعنا[(٣)].

وقد شكر المهاجرون للأنصار فعلهم ومواقفهم الرفيعة في الإيثار والكرم، وقالوا: يارسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلاً في كثير، ولقد كفونا المؤنة وأشركونا في المهْنأ[(٤)] حتى لقد حسبنا أن يذهبوا بالأجر كله، قال: «لا، ما أثنيتم عليهم ودَعَوتم الله لهم»[(٥)].

---

(١) البخاري: كتاب الصوم، باب الوصال إلى السحر، ورقمه (١٩٦٨).

(٢) البخاري: المزارعة، رقم (٢٣٢٥) وموضعين آخرين.

(٣) انظر: التاريخ الإسلامي (٤/٢٩).

(٤) يعني كفونا العمل، وأشركونا في الثمرة.

(٥) مسند أحمد: (٣/٢٠١)، وبرقم (١٣٠٧٥) ط/ الرسالة، وقال الشيخ شعيب، والشيخ عادل مرشد: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وانظر: ابن أبي شيبة (٩/٦٨، رقم ٦٥٦١).

وفي إشارة المهاجرين إلى الأجر الأخروي بيان لعمق تصورهم للحياة الآخرة، وهيمنة هذا التصور على تفكيرهم[١].

وقد أراد النبي ﷺ أن يكافىء الأنصار على تلك المكارم العظيمة التي قدموها لإخوانهم المهاجرين، فعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: دعا النبي ﷺ الأنصار إلى أن يُقْطِع لهم البحرين، فقالوا: لا، إلا أن تُقْطِع لإخواننا من المهاجرين مثلها، قال: «إمَّا لا، فاصبروا حتى تلقَوني فإنه سيصيبكم بعدي أَثَرَة»[٢].

لقد حققت هذه المؤاخاة أهدافها، فمنها إذهاب وحشة الغربة للمهاجرين، ومؤانستهم عن مفارقة الأهل والعشيرة، وشد أزر بعضهم بعضاً، ومنها نهوض الدولة الجديدة، لأن أي دولة لا يمكن أن تنهض وتقوم إلا على أساس من وحدة الأمة وتساندها، ولا يمكن لكل من الوحدة والتساند أن يتم بغير عامل التآخي والمحبة المتبادلة، فكل جماعة لا تؤلف بينها آصرة المودة والتآخي الحقيقية، لا يمكن أن تتحد حول مبدأ ما، وما لم يكن الاتحاد حقيقة قائمة في الأمة أو الجماعة فلا يمكن أن تتألف منها دولة[٣].

٥ ـ الإرث بالمؤاخاة:

لم يعرف تاريخ البشر كله حادثًا جماعيًا كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين بهذا الحب الكريم وبهذا البذل السخي، وبهذه المشاركة الفعالة وبهذا التسابق إلى الإيواء واحتمال الأعباء. فقد جعل النبي ﷺ من هذه الأخوة مسؤولية حقيقية تشيع بين هؤلاء الإخوة، و«جعل الله سبحانه وتعالى حق الميراث منوطًا بهذا التآخي دون حقوق القرابة والرحم، فقد كان من حكمة هذا التشريع أن تتجلى الأخوة الإسلامية حقيقة محسوسة في أذهان المسلمين وأن يعلموا أن مابين المسلمين من التآخي والتحابب ليس شعارًا وكلامًا مجردين»[٤].

والفترة الأولى من الهجرة وضعت كلاً من الأنصار والمهاجرين أمام مسؤولية خاصة من التعاون والتناصر والمؤانسة؛ بسبب مفارقة المهاجرين لأهلهم وتركهم ديارهم وأموالهم في مكة، ونزولهم ضيوفًا على إخوانهم الأنصار في المدينة، فكان من إقامة الرسول ﷺ من التآخي بين أفراد المهاجرين والأنصار ضمانة لتحقيق هذه المسؤولية، ولقد كان من مقتضى هذه المسؤولية أن يكون هذا التآخي أقوى في حقيقته وأثره من أُخوة الرحم المجردة، فلما استقر أمر المهاجرين في المدينة وتمكن الإسلام فيها غدت الروح الإسلامية هي وحدها العصب الطبيعي للمجتمع الجديد في المدينة.

فلما ألف المهاجرون جو المدينة وعرفوا مسالك الرزق فيها، وأصابوا من غنائم بدر

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/٢٩).
(٢) البخاري: مناقب الأنصار، رقم (٣٧٩٤).
(٣) في ظلال القرآن: (٦/٣٥٢٦).
(٤) انظر: فقه السيرة للبوطي (ص ١٤٩).

الكبرى ما كفاهم، رجع التوارث إلى وضعه الطبيعي المنسجم مع الفطرة البشرية على أساس صلة الرحم، وأبطل التوارث بين المتآخين، وذلك بنص القرآن الكريم فقال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [الأنفال: ٧٥].

فهذه نسخت التوارث بموجب نظام المؤاخاة[١]، وبقيت النصرة والرفادة والنصيحة بين المتآخين[٢]، فقد بيَّن حبر الأمة ابن عباس ذلك عند قوله تعالى:

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٣٣] إنه قال: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ﴾ قال: ورثةً (والذين عاقَدَت[٣] أيمانُكم) كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجرُ الأنصاريَّ دون ذوي رَحِمه؛ للأخوَّة التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ﴾ نُسِخَت، ثم قال: ﴿والذين عاقدت أيمانكم﴾ من النصر والرِّفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراثُ ويوصِي له[٤].

٦ ـ قيم إنسانية ومبادىء مثالية:

من خلال الروابط الوثيقة التي ألفت بين المهاجرين والأنصار أُرسِيَت قيم إنسانية واجتماعية ومبادىء مثالية لا عهد للمجتمع القبلي بها، وإنما هي من شأن المجتمعات المتحضرة الفاضلة.

٧ ـ تذويب الفوارق الإقليمية والقبلية:

إن القضاء على الفوارق الإقليمية والقبلية ليست بالأمر الهين في المجتمعات الجاهلية، حيث العصبية هي الدين عندهم، وعملية المؤاخاة تهدف إلى إذابة هذه الفوارق بصورة واقعية منطلقة من قلب البيئة الجاهلية.

إن من الأمراض في بعض جوانب الصف الإسلامي المعاصر سيطرة الروح الإقليمية والعصبية في نفوس بعض الدعاة، وهذه الأمراض تحول بينهم وبين التمكين، وتضعف الصفوف بل تُشتتها، وينشغل الصف بنفسه عن أهدافه الكبار.

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/٢٤٦).

(٢) انظر: التاريخ الإسلامي (٤/٢٥).

(٣) قال أبو حيان في البحر المحيط (٣/٢٣٨): «وقرأ الكوفيون: «عقَدت» بتخفيف القاف من غير ألف، وشدد القاف حمزة من رواية علي بن كبشة، والباقون «عاقدت» بألف. نقلاً عن تفسير القرآن العظيم لابن كثير، (٢/٢٥٢)، ط/ دار الشعب.

(٤) البخاري، كتاب التفسير ـ رقم (٤٥٨٠).

وقد تولد هذا عن أمراض في نفوس بعض الأفراد بسبب بعدهم عن القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين، فلم يتربوا عليها ولذلك كثر التناحر والتباغض.

إن المسلمين اليوم بأشد الحاجة إلى مثل هذه المؤاخاة التي حدثت بين المهاجرين والأنصار، لأنه يستحيل أن تُستَأنف حياة إسلامية عزيزة قوية إذا لم تتخلق المجتمعات الإسلامية بهذه الأخلاق الكريمة، وترتقي إلى هذا المستوى الإيماني الرفيع وإلى هذه التضحيات الكبيرة.

٨ ـ المؤاخاة بين المسلمين من أسباب التمكين المعنوية:

إن من أسباب التمكين المعنوية، العمل على تربية الأفراد تربية ربانية، وإعداد القيادة الربانية، ومحاربة أسباب الفُرقة، والأخذ بأصول الوحدة والاتحاد(١).

وأهم أصول الوحدة والاتحاد: وحدة العقيدة، وصدق الانتماء إلى الإسلام، وطلب الحق والتحري في ذلك، وتحقيق الأخوة بين أفراد المسلمين:

قال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٣﴾ [الأنفال: ٦٢ ـ ٦٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الحُجرَات: ١٠].

ولا يذوق حلاوة الإيمان إلا من أُشرب هذه الأخوة، قال ﷺ: «ثلاث مَن كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»(٢).

إن الأخوة في الله من أهم الأسباب التي تعمل على الصمود في وجه أعتى المحن التي تنزل بالمسلمين، كما أن الفهم المتبادل والكامل للأخوة في الله، من أسباب تماسك صفوف المسلمين وقوتهم، ومن أسباب شموخهم والتمكين لهم(٣).

٩ ـ من فضائل الأنصار:

أ ـ **تسمية الله لهم «الأنصار»**: سماهم الله ورسوله بهذا الاسم حين بايعوا على الإسلام، وقاموا

(١) انظر: فقه التمكين في القرآن للصَّلابي، (ص ٢٥٣).

(٢) انظر: البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، ورقمه (١٦).

(٣) انظر: نظرات في رسالة التعاليم، محمد عبد الله الخطيب، محمد عبد الحليم حامد، (ص ٢٦٢) بتصرف.

بإيواء المؤمنين ونُصرة دين الله ورسول الله ﷺ، ولم يكونوا معروفين بذلك من قبل[١]، فعن غيلان بن جرير رحمه الله قال: قلت لأنس ـ رضي الله عنه ـ: أرأيت اسم (الأنصار) كنتم تُسَمَّوْنَ به أم سماكم الله؟ قال: بل سمّانا الله عز وجل[٢]. أما مناقبهم وفضائلهم فكثيرة لا تحصى.

ومما ورد في القرآن الكريم فانظر:

(سورة الأنفال آية: ٧٤)، (سورة التوبة آية: ١٠٠)، (سورة الحشر آية: ٩).

وأما الأحاديث التي تحدثت عن مآثر الأنصار فمنها:

ب ـ **حب النبي ﷺ للأنصار**: عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: رأى النبي ﷺ النساء والصبيان مقبلين ـ قال: حَسبت أنه قال: من عُرُس ـ فقام النبي ﷺ مُمْثِلاً[٣]، فقال: «اللهم أنتم من أحب الناس إليَّ» قالها ثلاث مرار[٤].

جـ ـ **حب الأنصار علامة الإيمان وبغضهم علامة النفاق، ومن أحبهم فاز بحب الله، ومن أبغضهم شقي ببغض الله**: عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يُبْغِضُهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله»[٥].

د ـ **الشهادة لهم بالعفاف**: فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما يضر امرأةً نزلت بين بيتين من الأنصار أو نزلت بين أبويها»[٦].

هـ ـ **رغبة النبي ﷺ في الانتساب إليهم لولا الهجرة**: عن النبي ﷺ قال: «لو أن الأنصار سلكوا واديًا أو شِعْبًا لسلكت في وادي الأنصار، ولولا الهجرةُ لكنت امرءًا من الأنصار»[٧].

و ـ **دعاء النبي ﷺ بالمغفرة لهم ولأبنائهم وأزواجهم ولذرياتهم**:

روى البخاري عن عبد الله بن الفضل أنه سمع أنس بن مالك يقول: «حَزِنتُ على من أصيب

---

(١) انظر: الهجرة النبوية المباركة، د. عبد الرحمٰن البر (ص ١٣١ـ ١٣٥).

(٢) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب الأنصار رقم (٣٧٧٦).

(٣) مُمْثِلاً: بضم أوله وسكون ثانيه وكسر المثلثة، يَعني: انتصب قائمًا، يقال: مَثَلَ الرجل مثولاً إذا انتصب قائمًا.

(٤) البخاري: كتاب مناقب الأنصار، رقم (٣٧٨٥).

(٥) البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب حب الأنصار من الإيمان، رقم (٣٧٨٣).

(٦) رواه أحمد (٦/ ٢٥٧)، ورقمه (٢٦٢٠٧) ط/ الرسالة، وقال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، وسكت عنه الذهبي (٤/ ٨٣)، وأورده الهيثمي (المجمع ١٠/ ٤) وقال: رواه أحمد والبزار ورجالهما رجال الصحيح.

(٧) البخاري: مناقب الأنصار، رقم (٣٧٧٩).

بالحَرَّة، فكتب إِليّ زيدُ بن أرقم ـ وبلغه شدة حزني ـ يَذْكُرُ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار». وشك ابنُ الفضل في: (أبناء أبناء الأنصار) فسأل أنسًا بعضُ من كان عنده، فقال: هو الذي يقول رسولُ الله ﷺ: «هذا الذي أوفى الله له بأُذُنِهِ»[١].

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «الأنصار كَرِشِي وعَيْبَتي[٢]، والناس سيكثرون، ويقِلُّون[٣] فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم»[٤].

وعن أبي قتادة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر للأنصار:

«... فمن ولي الأنصار فليحسن إِلى محسنهم، وليتجاوز عن مسيئهم، ومن أفزعهم فقد أفزع هذا الذي بين هاتين ـ وأشار إِلى نفسه»[٥].

المبحث الثالث

الوثيقة أو الصحيفة

نظم النبي ﷺ العلاقات بين سكان المدينة، وكَتَب في ذلك كتابًا أوردته المصادر التاريخية، واستهدف هذا الكتاب ـ أو الصحيفة ـ توضيح التزامات جميع الأطراف داخل المدينة، وتحديد الحقوق والواجبات، وقد سميت في المصادر القديمة بالكتاب والصحيفة، وأطلقت الأبحاث الحديثة عليها: لفظة (الدستور).

ولقد عرض الدكتور أكرم ضياء العمري في كتابه «السيرة النبوية الصحيحة» لدراسة طرق ورود الوثيقة، وقال: «ترقى بمجموعها إِلى مرتبة الأحاديث الصحيحة»[٦]، وبيَّن أن أسلوب الوثيقة ينم عن أصالتها. فنصوصها مكونة من كلمات وتعابير كانت مألوفة في عصر الرسول ﷺ

---

(١) البخاري: كتاب التفسير، باب ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾، رقم (٤٩٠٦).

(٢) الكرش: كالكتف، والعَيْبة: بفتح المهملة وسكون المثناة بعدها موحدة، معناها ما يحرز الرجل فيها ويحفظ نفيس ما عنده من المتاع، والعَيبة من الرجل: موضع سره وأمانته. انظر: الهجرة النبوية المباركة، (ص ١٥٠)، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني (٧/ ١٥٢).

(٣) قال ابن حجر: «أي أن الأنصار يقلُّون، وفيه إِشارة إِلى دخول قبائل العرب والعجم في الإِسلام، وهم أضعاف أضعاف قبيلة الأنصار، فمهما فرض من الأنصار من الكثرة كالتناسل فرض في كل طائفة من أولئك، فهم أبدًا بالنسبة إِلى غيرهم قليل. ويحتمل أن يكون ﷺ اطلع على أنهم يقلون مطلقًا فأخبر بذلك، فكان كما أخبر لأن الموجودين الآن من ذرية علي بن أبي طالب ممن يتحقق نسبه إِليه أضعاف من يوجد من قبيلتي الأوس والخزرج ممن يتحقق نسبه، وقس على ذلك، ولا التفات إِلى كثرة من يدعي أنه منهم بغير برهان» فتح الباري: (٧/ ١٢٢).

(٤) البخاري: كتاب مناقب الأنصار، رقم (٣٨٠١).

(٥) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ١٥١).

(٦) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ٢٧٥).

obeikandl.com

ثم قلَّ استعمالها فيما بعد حتى أصبحت مغلقة على غير المتعمقين في دراسة تلك الفترة. وليس في هذه الوثيقة نصوص تمدح أو تقدح فردًا أو جماعة، أو تخص أحدًا بالإطراء أو الذم، لذلك يمكن القول بأنها وثيقة أصلية وغير مزورة[١]. ثم إن التشابه الكبير بين أسلوب الوثيقة وأساليب كتب النبي ﷺ يعطيها توثيقًا آخر.

أولاً: كتابه ﷺ بين المهاجرين والأنصار واليهود:

نص الوثيقة[٢]:

١ ـ هذا كتاب من محمد النبي ﷺ (رسول الله) بين المؤمنين والمسلمين من قريش (وأهل يثرب)، ومن تبعهم فلَحق بهم وجاهد معهم.

٢ ـ إنهم أمة واحدة من دون الناس.

٣ ـ المهاجرون من قريش على رِبْعتهم[٣] يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانِيَهم[٤] بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٤ ـ وبنو عوف على رِبْعتهم يتعاقلون معاقلهم[٥] الأولى، وكل طائفة تَفدي عانِيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٥ ـ وبنو الحارث (بن الخزرج) على رِبْعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانِيَها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.

٦ ـ وبنو ساعدة على رِبْعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانِيَها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.

٧ ـ وبنو جُشَم على رِبْعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانِيَها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.

٨ ـ وبنوالنجار على رِبْعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانِيَها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.

٩ ـ وبنو عمرو بن عوف على رِبْعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانِيَها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.

---

(١) تنظيمات الرسول الإدارية في المدينة لصالح العلى، (ص ٤، ٥).

(٢) مجموعة الوثائق السياسية لمحمد حميد الله (ص ٤١ ـ ٤٧).

(٣) الربعة: الحال التي جاء الإسلام وهم عليها.

(٤) العاني: الأسير.

(٥) المعاقل: جمع معقلة وهي الدِّيَات.

١٠ ـ وبنو النَّبيت على رِبْعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانِيَها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.

١١ ـ وبنو الأوس على رِبْعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانِيَها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.

١٢ ـ وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحًا[١] بينهم أن يُعطوه بالمعروف، من فِداء أو عَقْل وأن لا يحالف مؤمنٌ مولى مؤمنٍ دونه.

١٣ ـ وإن المؤمنين المتقين (أيديهم) على (كل) من بغى منهم أو ابتغى دَسِيعَةَ[٢] ظُلم، أو إثمًا أو عدوانًا أو فسادًا بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعًا ولو كان وَلَد أحدهم.

١٤ ـ ولا يقتل مؤمنٌ مؤمنًا في كافر، ولا ينصر كافرًا على مؤمن.

١٥ ـ وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

١٦ ـ وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

١٧ ـ وإن سِلْم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم.

١٨ ـ وإن كل غازية غزت معنا يُعقب بعضها بعضًا.

١٩ ـ وإن المؤمنين يُبِيء[٣] بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.

٢٠ ـ وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدي وأقومه. وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش، ولا نفسًا ولا يحول دونه على مؤمن.

٢١ ـ وإنه من اعتبط[٤] مؤمنًا قتلاً عن بينة فإنه قَوَدٌ به إلا أن يرضى ولي المقتول (بالعقل). وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيامٌ عليه.

٢٢ ـ وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحدثًا أو يُؤويه، وإن مَن نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صَرف ولا عدل.

٢٣ ـ وإنه مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد ﷺ.

٢٤ ـ وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين.

---

(١) المفرح: المثقل بالدّين والكثير العيال.

(٢) ابتغى دَسِيعَة ظُلْم: أي طلب دفعاً على سبيل الظلم. . انظر: لسان العرب ـ مادة: «دَسَعَ».

(٣) يُبيء: مِنَ «البَوَاء»، وهو المساواة.

(٤) أي قتله دون جناية أو سبب يوجب قتله.

٢٥ ـ وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم نفسه وأثِم فإنه لا يُوتِغُ[١] إلا نَفْسَه وأهلَ بيته.

٢٦ ـ وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف.

٢٧ ـ وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف.

٢٨ ـ وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف.

٢٩ ـ وإن ليهود بني جُشَم مثل ما ليهود بني عوف.

٣٠ ـ وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف.

٣١ ـ وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف إلا من ظَلَم وأَثِم، فإنه لا يُوتِغ إلا نفسَه وأهلَ بيته.

٣٢ ـ وإن جَفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم.

٣٣ ـ وإن لبني الشُّطَيبة مثل ما ليهود بني عوف وإن البر دون الإثم.

٣٤ ـ وإن موالي ثعلبة كأنفسهم.

٣٥ ـ وإن بطانة يهود كأنفسهم.

٣٦ ـ وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ.

[وإنه لا ينحجز على ثار جُرْح؛ وإنه من فَتَك فبنفسه فتك، وأهلِ بيته، إلا من ظَلَم؛ وإن الله على أَبَرِّ هذا][٢].

٣٧ ـ وإن على اليهود نفقَتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصرَ على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم.

٣٨ ـ وإنه لا يأثم امرؤٌ بحليفه وإن النصر للمظلوم.

[وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين][٣].

٣٩ ـ وإن يثرب حرام جَوفها لأهل هذه الصحيفة.

٤٠ ـ وإن الجار كالنفس غير مُضارّ ولا آثم.

---

(١) يُوتغ: يُهْلك.

(٢) ما بين المعقوفين من سيرة ابن هشام ومعنى «على أبر هذا» أي: على الرضا به.

(٣) ما بين المعقوفين من سيرة ابن هشام، وقد سبقت برقم (٢٤)، فهل تكررت للتأكيد، أم لغير ذلك؟ ـ الله أعلم.

٤١ ـ وإنه لا تُجار حرمة إلا بإذن أهلها.

٤٢ ـ وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فساده فإن مَردَّه إلى الله، وإلى محمد رسول الله ﷺ، وإن الله على أتقى مافي هذه الصحيفة وأبرّه[١].

٤٣ ـ وإن بينهم النصر من دَهم يثرب.

[وإنه لا تُجار قريش ولا من نصرها][٢].

٤٤ ـ (أ) وإذا دُعوا إلى صلح يصالحونه ويَلْبَسونه فإنهم يصالحون ويلبسونه، وإنهم إذا دُعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين.

(ب) على كل أناس حقهم[٣] من جانبهم الذي قِبَلهم.

٤٥ ـ وإن يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وإن البر دون الإثم، لا يكسب كاسبٌ إلا على نفسه، وإن الله على ما أصدق مافي هذه الصحيفة وأبره.

٤٦ ـ وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة؛ إلا من ظلم وأثِم، وإن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ[٤].

ثانيًا: دروس وعبر وفوائد من الوثيقة:

١ ـ تحديد مفهوم الأمة:

تضمنت الصحيفة مبادىء عامة درجت دساتير الدول الحديثة على وضعها فيها، وفي طليعة هذه المبادىء، تحديد مفهوم الأمة، فالأمة في الصحيفة تضم المسلمين جميعًا مهاجريهم، وأنصارهم، ومن تبعهم ممن لحق بهم وجاهد معهم، أمّة واحدة من دون الناس[٥]، وهذا شيء جديد كل الجدّة في تاريخ الحياة السياسية في جزيرة العرب، إذ نقل الرسول ﷺ قومه من شعار القبلية والتبعية لها، إلى شعار الأمة التي تضم كل من اعتنق الدين الجديد، فلقد قالت الصحيفة عنهم: إنهم «أمة واحدة» المادة (٢١) وقد جاء به القرآن الكريم قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

---

(١) أي أن الله وحزبه المؤمنين على الرضا به.

(٢) هذه من ابن هشام.

(٣) في ابن هشام: «حِصَّتُهم».

(٤) انظر: مجموعة الوثائق السياسية (ص ٤١ـ ٤٧)، وانظر ابن هشام (ق ١/ ٥٠١ـ ٥٠٤).

(٥) انظر: التاريخ السياسي والعسكري، د. علي معطي (ص ١٦٩).

obeikandi.com

وبيّن سبحانه وتعالى وسطية هذه الأمة في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البَقَرَة: ١٤٣].

ووضح سبحانه وتعالى أنها بكونها أمة إيجابية فهي لا تقف موقف المتفرج من قضايا عصرها، بل تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتدعو إلى الفضائل، وتحذر من الرذائل[(١)]. قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عِمرَان: ١١٠].

وبهذاالاسم الذي أطلق على جماعة من المسلمين والمؤمنين، ومن تبعهم من أهل يثرب اندمج المسلمون على اختلاف قبائلهم في هذه الجماعة، التي ترتبط بينها برابطة الإسلام فهم يتكافلون فيما بينهم، وهم ينصرون المظلوم على الظالم، وهم يرعون حقوق القرابة، والمحبة، والجوار[(٢)]، لقد انصهرت طائفتا الأوس والخزرج في جماعة الأنصار، ثم انصهر الأنصار والمهاجرون في جماعة المسلمين وأصبحوا أمة واحدة[(٣)] تربط أفرادها رابطة العقيدة، وليس الدم، فيتحد شعورهم وتتحد أفكارهم وتتحد قبلتهم ووجهتهم، وولاؤهم لله وليس للقبيلة، واحتكامهم للشرع، وليس للعرف، وهم يتمايزون بذلك كله على بقية الناس «من دون الناس» فهذه الروابط تقتصر على المسلمين، ولا تشمل غيرهم من اليهود والحلفاء.

ولا شك أن تمييز الجماعة الدينية كان أمرًا مقصودًا، يستهدف زيادة تماسكها واعتزازها بذاتها[(٤)]، يتضح ذلك في تمييزها بالقبلة، واتجاهها إلى الكعبة بعد أن اتجهت ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا إلى بيت المقدس[(٥)].

وقد مضى النبي ﷺ يميز أتباعه عمن سواهم في أمور كثيرة، ويوضح لهم أنه يقصد بذلك مخالفة اليهود، من ذلك: أن اليهود لا يصلون بالخفاف، فأذن النبي ﷺ لأصحابه أن يصلوا بالخف، واليهود لا تصبغ الشيب فصبغ المسلمون شيب رؤوسهم بالحناء والكَتَم، واليهود تصوم عاشوراء، والنبي ﷺ يصومه أيضًا ثم اعتزم أواخر حياته أن يصوم تاسوعاء معه مخالفة لهم[(٦)]. ثم إن النبي ﷺ وضع للمسلمين مبدأ مخالفة غيرهم، والتميز عليهم فقال:

---

(١) انظر: دستور للأمة، د. عبد الناصر العطار (ص ٩).
(٢) انظر: التاريخ السياسي والحضاري، د. السيد عبد العزيز سالم (ص ١٠٠).
(٣) انظر: قيادة الرسول السياسية والعسكرية، أحمد راتب (ص ٩٣).
(٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٩٣).
(٥) تاريخ خليفة بن خياط (ص ٢٣، ٢٤)، وسيرة ابن هشام (١/ ٥٥٠).
(٦) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٩٣).
(٧) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٩٣).

«من تشبه بقوم فهو منهم»[١]، وقال: «لا تشبهوا باليهود»[١]، والأحاديث في ذلك كثيرة، وهي تفيد معنى تميز المسلمين واستعلائهم على غيرهم، ولا شك أن التشبه والمحاكاة للآخرين يتنافى مع الاعتزاز بالذات والاستعلاء على الكفار، ولكن هذا التميز والاستعلاء لا يشكل حاجزًا بين المسلمين وغيرهم فكيان الجماعة الإسلامية مفتوح، وقابل للتوسع ويستطيع الانضمام إليه من يؤمن بعقيدته[٢].

واعتبرت الصحيفة اليهود جزءًا من مواطني الدولة الإسلامية، وعنصرًا من عناصرها؛ ولذلك قيل في الصحيفة: «وأن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين، ولا متناصر عليهم» المادة (١٦) ثم زاد هذا الحكم إيضاحًا في المادة (٢٥) ومايليها حيث نص فيها صراحة بقوله: «وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين...».

وبهذا نرى أن الإسلام قد اعتبر أهل الكتاب الذين يعيشون في أرجائه مواطنين، وأنهم أمة مع المؤمنين، ماداموا قائمين بالواجبات المترتبة عليهم، فاختلاف الدين ليس ـ بمقتضى أحكام الصحيفة ـ سببًا للحرمان من مبدأ (المواطنة)[٣].

٢ ـ المرجعية العليا لله ورسوله:

جعلت الصحيفة الفصل في كل الأمور بالمدينة، يعود إلى الله ورسوله ﷺ، فقد نصت على مرجع فض الخلاف في المادة (٢٣)، وقد جاء فيها: «وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مردّه إلى الله وإلى محمد ﷺ». والمغزى من ذلك واضح وهو تأكيد سلطة عليا دينية، تهيمن على المدينة، وتفصل في الخلافات منعًا لقيام اضطرابات في الداخل من جراء تعدد السلطات، وفي الوقت نفسه تأكيد ضمني برئاسة الرسول ﷺ على الدولة[٤]. فقد حددت الصحيفة مصدر السلطات الثلاث التشريعية، والقضائية، والتنفيذية، فكان رسول الله ﷺ حريصًا على تنفيذ أوامر الله من خلال دولته الجديدة، لأن تحقيق الحاكمية لله على الأمة هو محض العبودية لله تعالى، لأنه بذلك يتحقق التوحيد، ويقوم الدين قال تعالى:

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يُوسُف: ٤٠].

يعني: «ما الحكم الحق في الربوبية والعقائد والعبادات، والمعاملات إلا لله وحده، يوحيه لمن اصطفاه من رسله لا يمكن لبشر أن يحكم فيه برأيه وهواه، ولا بعقله واستدلاله،

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/٢٩٣).

(٢) انظر: نظام الحكم، ظافر القاسمي (١/٣٧).

(٣) انظر: التاريخ السياسي والحضاري، د. السيد عبد العزيز (ص ١٠٢).

(٤) انظر: تفسير المنار (١٢/٣٠٩).

ولا باجتهاده واستحسانه، فهذه القاعدة هي أساس دين الله تعالى على ألسنة جميع رسله لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة»[١].

لقد نزل القرآن الكريم من أجل تحقيق العبودية والحاكمية لله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزُّمَر: ٢ ـ ٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النِّساء: ١٠٥].

فكما أن تحقيق العبودية غاية من إنزال الكتاب؛ فكذلك تطبيق الحاكمية غاية من إنزاله، وكما أن العبادة لا تكون إلا عن وحي منزل؛ فكذلك لا ينبغي أن يحكم إلا بشرع منزل أو بما له أصل في شرع منزل[٢].

إن تحقيق الحاكمية تمكين للعبودية، وقيام بالغاية التي من أجلها خلق الإنسان والجان، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقد اعترف اليهود في هذه الصحيفة بوجود سلطة قضائية عليا، يرجع إليها سكان المدينة بمن فيهم اليهود بموجب المادة (٤٢)، لكن اليهود لم يُلزموا بالرجوع إلى القضاء الإسلامي دائمًا بل فقط عندما يكون الحدث أو الاشتجار بينهم وبين المسلمين، أما في قضاياهم الخاصة وأحوالهم الشخصية فهم يحتكمون إلى التوراة، ويقضي بينهم أحبارهم، ولكن إذا شاءوا فبوسعهم الاحتكام إلى النبي ﷺ، وقد خيّر القرآن الكريم النبي ﷺ بين قبول الحكم فيهم أو ردّهم إلى أحبارهم، قال تعالى:

﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

ومن القضايا التي أراد اليهود تحكيم الرسول ﷺ فيها، اختلاف بني النضير وبني قريظة في دِيَة القتلى بينهما، فقد كانت بنو النضير أعزّ من بني قريظة، فكانت تفرض عليهم دية مضاعفة لقتلاها، فلما ظهر الإسلام في المدينة امتنعت بنو قريظة عن دفع الضعف، وطالبت بالمساواة في الدّية[٣]، فنزلت الآية: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ

---

(١) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/ ٤٣٣).

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٩١).

(٣) انظر: دولة الرسول ﷺ من التكوين إلى التمكين (ص ٤١٨).

opelkandi.com

﴿يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المَائدة: الآية ٤٥] .

وبهذه الصحيفة التي أقرت المادة (٤٢): «على أنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أواشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسوله ﷺ» أصبح للرسول ﷺ سلطة قضائية مركزية عليا، يرجع إليها الجميع، وجعلها ترجع إلى الله وإلى الرسول ﷺ، ولها قوة تنفيذية لأن أوامر الله واجبة الطاعة، وملزمة التنفيذ، كما أن أوامر الرسول ﷺ هي من الله، وطاعتها واجبة[1].

وبذلك أصبح رسول الله ﷺ رئيس الدولة، وفي الوقت نفسه رئيس السلطة القضائية والتنفيذية، والتشريعية، فقد تولى رسول الله ﷺ السلطات الثلاث بصفته رسول الله المكلف بتبليغ شرع الله، والمفسر لكلام الله، والسلطة التنفيذية بصفته الرسول الحاكم، ورئيس الدولة، فقد تولى رئاسة الدولة وَفْقَ نصوص الصحيفة، وباتفاق الطوائف المختلفة الموجودة في المدينة ممن شملتهم نصوص الصحيفة في المادة (٣٦) التي تقرر أنه: «لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد» ﷺ، ولهذا تأثير كبير في عدم السماح لهم بمحالفة قريش، أو غيرها من القبائل المعادية، وهناك المادة (التي بعد رقم ٤٣) التي ذهبت إلى ما هو أبعد وأصرح من ذلك، إذ قررت أنه: «لا تجار قريش ولا من نصرها» ولم يرد في الصحيفة اسم لأي شخص ماعدا رسول الله ﷺ[2].

٣ ـ إقليم الدولة:

وجاء في الصحيفة: «وإن يثرب حرام جَوفها لأهل هذه الصحيفة» مادة (٣٩) وأصل التحريم أن لا يقطع شجرها، ولا يقتل طيرها، فإذا كان هذا هو الحكم في الشجر والطير، فما بالك في الأموال والأنفس؟[3] فهذه الصحيفة حددت معالم الدولة: أمة واحدة، وإقليم هو المدينة، وسلطة حاكمة يرجع إليها وتحكم بما أنزل الله.

إن المدينة كانت بداية إقليم الدولة الإسلامية ونقطة الانطلاق، ومركز الدائرة التي كان الإقليم يتسع منها حتى يضع حدًا للقلاقل والاضطرابات، ويسوده السلم والأمن العام.

وقد أرسل النبي ﷺ أصحابه ليثبتوا أعلامًا على حدود حرم المدينة من جميع الجهات، وحدود المدينة بين لابتيها شرقًا وغربًا، وبين جبل ثور في الشمال، وجبل عَيْر في الجنوب.

ثم اتسع (الإقليم) باتساع الفتح، ودخول شعوب البلاد المفتوحة في الإسلام، حتى عمّ مساحة واسعة في الأرض والبحر ومايعلوهما من فضاء، فمن المحيط الأطلسي غربًا ومناطق

---

(١) المصدر نفسه (ص ٤٢٠).

(٢) انظر: نظام الحكم، ظافر القاسمي (١/ ٣٨).

(٣) انظر: دولة الرسول ﷺ من التكوين إلى التمكين (ص ٤١١).

واسعة من غرب أوروبا وجنوبها، ومناطق فسيحة من غرب آسيا وجنوبها، إلى أكثر أهل الصين وروسيا شرقًا، وكل شمال إفريقية وأواسطها[١]، إن إقليم الدولة مفتوح وغير محدود بحدود جغرافية أو سياسة، فهو يبدأ من عاصمة الدولة (المدينة) ويتسع حتى يشمل الكرة الأرضية بأسرها، قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] كما أن مفهوم الأمة مفتوح وغير منغلق على فئة دون فئة، بل هي ممتدة لتشمل الإنسانية كلها، إذا ما استجابت لدين الله تعالى الذي ارتضاه لخلقه ولبني آدم أينما كانوا.

فالدولة الإسلامية دولة الرسالة العالمية، لكل فرد من أبناء المعمورة نصيب فيها، وهي تتوسع بوسيلة الجهاد[٢].

٤ ـ الحريات وحقوق الإنسان:

إن الصحيفة تدل بوضوح وجلاء على عبقرية الرسول ﷺ في صياغة موادها وتحديد علاقات الأطراف بعضها ببعض، فقد كانت موادها مترابطة وشاملة، وتصلح لعلاج الأوضاع في المدينة آنذاك، وفيها من القواعد والمبادىء ما يحقق العدالة المطلقة، والمساواة التامة بين البشر، وأن يتمتع بنو الإنسان على اختلاف ألوانهم ولغاتهم وأديانهم بالحقوق والحريات بأنواعها[٣]. يقول الأستاذ الدكتور محمد سليم العوا: «ولا تزال المبادىء التي تضمنها الدستور ـ في جملتها ـ معمولاً بها، والأغلب أنها ستظل كذلك في مختلف نظم الحكم المعروفة إلى يوم... وصل إليها الناس بعد قرون من تقريرها في أول وثيقة سياسية دوَّنها الرسول ﷺ»[٤].

فقد أعلنت الصحيفة أن الحريات مصونة، كحرية العقيدة والعبادة، وحق الأمن... إلخ. فحرية الدين مكفولة: «للمسلمين دينهم ولليهود دينهم» قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٦] وقد أنذرت الصحيفة بإنزال الوعيد، وإهلاك من يخالف هذا المبدأ أو يكسر هذه القاعدة، وقد نصت الوثيقة على تحقيق العدالة بين الناس، وعلى تحقيق مبدأ المساواة.

إن الدولة الإسلامية واجب عليها أن تقيم العدل بين الناس، وتفسح المجال وتيسر السبل أمام كل إنسان يطلب حقه أن يصل إلى حقه بأيسر السبل وأسرعها، دون أن يكلفه ذلك جهدًا

(١) المصدر نفسه (ص ٤٢١).

(٢) المصدر نفسه (ص ٤٢٠).

(٣) انظر: النظام السياسي في الإسلام (ص ٦٥).

(٤) المصدر نفسه (ص ٥٨).

أو مالاً[1]، وعليها أن تمنع أي وسيلة من الوسائل من شأنها أن تعيق صاحب الحق من الوصول إلى حقه.

لقد أوجب الإسلام على الحكام أن يقيموا العدل بين الناس، دون النظر إلى لغاتهم أو أوطانهم، أو أحوالهم الاجتماعية، فهو يعدل بين المتخاصمين ويحكم بالحق، ولا يهمه أن يكون المحكوم لهم أصدقاء أو أعداء، أغنياء أو فقراء، عمالاً أو أصحاب عمل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

والمعنى لا يحملنكم بغض قوم على ظلمهم، ومقتضى هذا أنه لا يحملنكم حب قوم على محاباتهم والميل معهم[2].

أما مبدأ المساواة، فقد جاءت نصوص صريحة في الصحيفة حولها، منها: «أن ذمَّة الله واحدة» وأن المسلمين «يجير عليهم أدناهم» وأن «بعضهم موالي بعض دون الناس» ومعنى المادة الأخيرة: أنهم يتناصرون في السّراء والضرّاء، المادة (١٥). وتضمنت المادة (١٩) أن «المؤمنين يُبيء بعضهم على بعض، بما نال دماءهم في سبيل الله». قال السهيلي شارح السيرة في كتابه [الروض الأنف]: «ومعنى قوله يُبيء هو من البواء، أي: المساواة»[3].

يعد مبدأ المساواة أحد المبادىء العامة التي أقرها الإسلام، وهو من المبادىء التي تساهم في بناء المجتمع المسلم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحُجرات: ١٣].

وقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى، أبلَّغتُ»[4].

إن هذا المبدأ كان من أهم المبادىء التي جذبت الكثير من الشعوب قديمًا نحو الإسلام، فكان هذا المبدأ مصدرًا من مصادر القوة للمسلمين الأولين[5].

وليس المقصود بالمساواة هنا (المساواة العامة) بين الناس جميعًا في كافة أمور الحياة كما

---

(١) المصدر السابق نفسه (ص ٥٢).

(٢) انظر: الروض الأنف (٢/١٧)، نقلاً عن نظام الحكم للقاسمي (١/٣٨).

(٣) انظر: مسند الإمام أحمد (٥/٤١١)، وبرقم (٢٣٤٨٩) من ط/ الرسالة، وقال محققوه: إسناده صحيح.

(٤) انظر: مبادىء نظام الحكم في الإسلام، عبد الحميد متولي (ص ٣٨٥).

ينادي بعض المخدوعين ويرون ذلك عدلاً(١)، فالاختلاف في المواهب والقدرات، والتفاوت في الدرجات غاية من غايات الخلق(٢)، ولكن المقصود المساواة التي دعت إليها الشريعة الإسلامية، مساواة مقيدة بأحوال، وليست مطلقة في جميع الأحوال(٣). فالمساواة تأتي في معاملة الناس أمام الشرع، والقضاء، وكافة الأحكام الإسلامية والحقوق العامة دون تفريق بسبب الأصل، أو الجنس، أو اللون، أو الثروة، أو الجاه، أو غيرها(٤).

كانت الوثيقة قد اشتملت على أتمّ ما قد تحتاجه الدولة من مقوماتها الدستورية والإدارية، وعلاقة الأفراد بالدولة، وكان القرآن يتنزل في المدينة عشر سنين يرسم للمسلمين خلالها مناهج الحياة، ويرسي مبادىء الحكم، وأصول السياسة، وشئون المجتمع، وأحكام الحرام والحلال، وأسس التقاضي، وقواعد العدل، وقوانين الدولة المسلمة في الداخل والخارج، والسنة الشريفة تدعم هذا وتشيده، وتفصله في تنوير وتبصرة. فالوثيقة خطت خطوطًا عريضة في الترتيبات الدستورية، وتعتبر في القمة من المعاهدات التي تحدد صلة المسلمين بـ (الأجانب) الكفار المقيمين معهم، في شيء كثير من التسامح والعدل والمساواة، وعلى التخصيص إذا لوحظ أنها أول وثيقة إسلامية، تسجل وتنفذ في أقوام كانوا منذ قريب وقبل الإسلام أسرى العصبية القبلية، ولا يشعرون بوجودهم إلا من وراء الغلبة، والتسلط وبالتخوض في حقوق الآخرين وأشيائهم(٥). كانت هذه الوثيقة فيها من المعاني الحضارية الشيء الكثير، وما توافق الناس على تسميته اليوم بحقوق الإنسان، وإنه لابد على الجانبين المتعاقدين أن يلتزموا ببنودها، فهل حدث هذا الالتزام؟(٦).

ثالثًا: موقف اليهود في المدينة:

لقد قامت الحجج القاطعة والبراهين الساطعة لليهود على صدق رسالة الرسول ﷺ، ولكن ذلك لم يزدهم إلا عنادًا، وعداوة، واستكبارًا، وحقدًا وحسدًا على الرسول والذين آمنوا معه، فعن صفية بنت حُيَي بن أخطب ـ أم المؤمنين رضي الله عنها ـ أنها قالت: «كنت أحب ولد أبي إليه، وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قَطُّ مع ولد لهما إلا أخذاني دونه، قالت: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، ونزل قباء في بني عمرو بني عوف، غدا عليه أبي حُيَي بن أخطب، وعمي أبو ياسر بن أخطب مُغَلِّسَيْن. قالت: فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس، قالت: فأتيا كالَّيْن كسلانين ساقطين يمشيان الهُوَيْنَى، قالت: فهَشِشْتُ إليهما، كما كنت أصنع، فوالله

(١) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها. للميداني (١/ ٦٢٤).
(٢) انظر: فلسفة التربية الإسلامية، ماجد الكيلاني (ص ١٧٩).
(٣) انظر: مبادىء علم الإدارة، محمد نور الدين (ص ١١٦).
(٤) انظر: فقه التمكين، د. علي الصَّلابي (ص ٤٦٣).
(٥) انظر: صورة وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، د. محمد فيض الله (ص ٢٩، ٣٠).
(٦) انظر: هجرة الرسول وصحابته للجمل (ص ٢٦١).

ما التفت إليَّ واحد منهما، مع ما بهما من الغم، قالت: وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي حيي بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: أتعرفه وتُثْبته؟ قال: نعم. قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيتُ»(١).

وقد شن اليهود على رسول الله ﷺ والذين آمنوا معه حملات إعلامية لتشويه صورة الرسول ﷺ، وتنفير الناس منه، ونزع ثقتهم فيه منهم، لقد شعر اليهود بخطورة هذا الدين على مصالحهم، وعلى عقيدتهم المنحرفة المزيفة القائمة على الاستعلاء، واحتقار الناس، عدا الجنس اليهودي، لقد جاء ينادي بعقيدة التوحيد وهم يقولون: عزير ابن الله، وجاء ينادي بالمساواة بين أفراد الجنس البشري، وأنه لايعلو شعب على شعب، ولا جماعة على جماعة، وهم يرون أنهم شعب الله المختار، يترفعون عن بقية الأجناس، وينظرون إليهم على أنهم دونهم، وأقل منهم(٢)؛ ولذلك لم يلتزموا ببنود الوثيقة، وشرعوا في التشكيك في نبوة الرسول ﷺ ورسالته، وأكثروا من الأسئلة لإحراج رسول الله ﷺ، وخدعوا المؤمنين ودلسوا عليهم(٣)، وغير ذلك من الأعمال الخبيثة.

١ ـ محاولة اليهود لتصديع الجبهة الداخلية:

ومن وسائلهم الخبيثة في حرب الإسلام محاولاتهم المستمرة لتمزيق الصف المسلم وتخريبه بتقطيع أواصر المحبة بين المسلمين، وذلك بإثارة الفتن الداخلية، والشعارات الجاهلية، والنعرات الإقليمية، والدعوات القومية والقَبلية، والسعي بالدسيسة والوقيعة بين الإخوة المتآلفين المتوادين المتحابين، فهم في توادّهم وتعاطفهم وتراحمهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر(٤).

فقد تفتق ذهن أحد شيوخهم الكبار في السن عن حيلة هدف بها إلى تفريق وحدة الأنصار، وذلك بإثارة العصبية القبلية بينهم ليعودوا إلى جاهليتهم، فتعود الحروب بينهم كما كانت، ويخسر النبي ﷺ بذلك أقوى أنصاره(٥)، وفي بيان هذا الخبر يقول محمد بن إسحاق ـ رحمه الله تعالى ـ: ومَرّ شأس بن قيس وكان شيخًا قد عَسَا(٦)، عظيمَ الكفر، شديدَ الضِّغْن على المسلمين، شديد الحسد لهم، على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه مارأى من ألفتهم وجماعتهم، وصلاح ذات بينهم

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/٥١٨، ٥١٩).
(٢) انظر: الصراع مع اليهود، د. محمد أبو فارس (١/ ٣١).
(٣) انظر: الصراع مع اليهود، د. محمد أبو فارس (١/ ٣١ـ ٤٦).
(٤) المصدر نفسه (١/ ٤٤).
(٥) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ٣٧).
(٦) عَسَا: كَبِرَت سِنُّه.

على الإِسلام بعد الذي كان بينهم في الجاهلية، فقال: قد اجتمع ملأ بني قَيْلَة[١] بهذه البلاد، لا والله مالنا معهم إِذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شاباً مِنْ يهودَ كان معهم، فقال: اعْمِد إِليهم فاجلس معهم ثم اذكر يوم بُعاث وما كان قَبلَه، وأنشدهم بعض ماكانوا تقاولوا فيه من الأشعار.

وكان يوم بُعاث يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظَفَر فيه يومئذٍ للأوس على الخزرج، وكان على الأوس يومئذٍ حُضير بن سماك الأشهلي، أبو أُسيد بن حُضَير، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البَيَاضي فقُتلا جميعًا.

قال ابن إسحاق: ففعل، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحَيَّيْن على الرُّكب: أوس بن قَيْظي، أحد بني حارثة بن الحارث، من الأوس، وجبَّار بن صخر، أحد بني سَلمة من الخزرج، فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إِن شئتم رددناها الآن جَذَعة[٢]، فغضب الفريقان جميعًا، وقالوا: قد فعلنا، موعدكم الظاهرة ـ والظاهرة: الحرّة ـ السلاحَ السلاح، فخرجوا إِليها.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إِليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم، فقال: «يا معشر المسلمين، الله الله، أَبِدَعوى الجاهلية، وأنا بين أظهُركم بعد أن هداكم الله للإِسلام وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر وألف به بين قلوبكم؟».

فعرف القوم أنها نزغةٌ من الشيطان، وكيدٌ من عدوهم، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضًا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شأس بن قيس، فأنزل الله تعالى في شأس بن قيس، وما صنع: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عِمرَان: ٩٨، ٩٩].

وأنزل الله في أوس بن قَيْظي، وجَبَّار بن صخر، ومن كان معهما من قومها الذين صنعوا ما صنعوا عمّا أدخل عليهم شأسُ من أمر الجاهلية[٣]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ

---

(١) قَيْلَة: أُم الأوس والخزرج.

(٢) جَذَعَة: أي رددنا الحرب فتية قوية، أو رددنا الآخر إِلى أوله.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (ق١/ ٥٥٥ ـ ٥٥٧).

لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٠٠ ـ ١٠٥] .

ونرى من خلال القصة قدرة القيادة النبوية على إحباط مخطط اليهود الهادف لتفتيت وحدة الصف، واهتمام النبي ﷺ بأمور المسلمين وإشفاقه عليهم، وفزعه مما يصيبهم من الفتن والمصائب، فقد أسرع إلى الأنصار وذكرهم بالله، وبيّن لهم أن ما أقدموا عليه من أمر الجاهلية، وذكرهم بالإسلام وما أكرمهم الله به من القضاء على الحروب، والفتن وتطهير النفوس من الضغائن، وتأليف القلوب بالإيمان، وكان لكلمات النبي ﷺ أثر في نفوسهم وسرت في كيانهم روح جديدة مسحت كل أثر لأمر الجاهلية بفضل الله تعالى، ثم بكلمات نبيه ﷺ المعبرة، وروحه القوية المؤثرة، وهيئته الوثابة المنذرة، وأدركوا أن ما وقعوا فيه كان من وساوس الشيطان، وكيد عدوهم من اليهود، فبكوا ندمًا على ما وقعوا فيه من الذنوب، وتعانق رجال الإسلام تعبيرًا على محبتهم الإيمانية لبعضهم[1].

٢ ـ التهجم على الذات الإلهية:

ذكر غير واحد من كتاب السير، والمفسرين أن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ قد دخل بيت المِدْراس[2] على يهود، فوجد منهم ناسًا كثيرًا قد اجتمعوا إلى رجل منهم، يقال له: (فِنْحاص)، وكان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حبر من أحبارهم يقال له: (أشيع)، فقال أبو بكر لفنحاص: ويحك! اتق الله، وأسلم، فوالله إنك تعلم أن محمدًا لرسول الله قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة والإنجيل، فقال فنحاص لأبي بكر: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، وماهو عنا بغني، ولو كان عنا غنيًّا ما استقرضنا أموالنا، كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان عنا غنيًّا ما أعطانا الربا، فغضب أبو بكر فضرب وجه فنحاص ضربًا شديدًا، وقال: والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينكم لضربت رأسك أي عدو الله، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، انظر ماصنع بي صاحبك، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «ما حملك على ما صنعت؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن عدو الله قال قولاً عظيمًا إنه يزعم أن الله فقير، وأنهم أغنياء، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال، وضربت وجهه فجحد ذلك فنحاص، وقال: ماقلت ذلك، فأنزل الله تعالى فيما قال فنحاص ردًّا عليه، وتصديقًا لأبي بكر: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عِمرَان: ١٨١] .

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي (٤/ ٤١، ٤٢).

(٢) مكان يتلى فيه التوراة.

ونزل في أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وما بلغه في ذلك من الغضب[1]: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦][2].

وذكر القرآن الكريم في أكثر من موضع سوء أدبهم مع الله سبحانه وتعالى، وعدم تنزيهه عن النقائص، ووصْفَه بما لا يليق به سبحانه، وهذا عين الوقاحة، وانعدام الأدب، ومن هذه الآيات، قول الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

ويبدو من مضمون أن هذا الموقف الذي وقفوه كان منبعثًا مما كان يملأ صدورهم من الغيظ والسخط من رسوخ في قدم النبي ﷺ، وانتشار دعوته، ولعل مما يصح أن يضاف إلى هذا الاحتمال كون المسلمين قد انصرفوا عنهم، أو قاطعوهم بسبب مواقف الكيد والجحود التي مافتئوا يقفونها، واستجابة لأمر القرآن ونهيه وتحذيره، فأثر ذلك في حالتهم الاقتصادية تأثيرًا سيئًا، زاد سخطهم وغيظهم وتبرمهم، ودفعهم إلى ما كان منهم من سوء الأدب في حق الله، ومن رد غير جميل لرسول الله ﷺ[3].

٣ ـ سوء أدبهم مع رسول الله ﷺ والنيل من الرسل الكرام والقرآن الكريم:

وكان اليهود يسيئون الأدب مع رسول الله ﷺ، في حضرته وأثناء خطابه، إذ يلمزونه، ويحيونه بتحية فيها من الأذى والتهجم ما يدل على سوء أخلاقهم، فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: جاء ناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: السام[4] عليك يا أبا القاسم، فقلتُ: السام عليكم، وفعل الله بكم، فقال رسول الله ﷺ: «مه يا عائشة فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش»، فقلت: يا رسول الله ترى مايقولون؟ فقال: «ألست تريني أرد عليهم ما يقولون؟ وأقول: وعليكم» قالت: فنزلت هذه في ذلك[5] وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٤/ ٢٩٥).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (ق١/٥٥٨، ٥٥٩)، وسبل الهدى والرشاد (٣/ ٥٨٣ـ ٥٨٥)، وتفسير مجاهد (ص ١٤٠).

(٣) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ٥١).

(٤) السَّام: الموت. انظر: زاد المسير (٨/ ١٨٩).

(٥) زاد المسير في علم التفسير (٨/ ١٨٩)، رواه ابن أبي حاتم من حديث الأعمش عن مسروق عن عائشة وإسناده صحيح. وفي صحيح مسلم (٤/ ١٧٠٧) رقمه (٢١٦٥).

نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: الآية ٨].

وهذه الآية تظهر الحقد الذي هيمن على نفوس اليهود، ودفعهم إلى استخدام كل الوسائل والطرق لهدم الإسلام، والتخلص من صاحب الرسالة، والسيطرة على المسلمين، ولكن يظهر من دعاء بعض اليهود على الرسول ﷺ بالموت مع التظاهر بالسلام عليه، الضعفُ الذي كانوا عليه عند التجائهم إلى هذا النوع من السلام، فالممارس لمثل ما قام به اليهودي الذي سلم على الرسول ﷺ بقوله: السام عليك، يعيش أزمة نفسية متولدة عن فقدان عز كان يظن أنه ينعم فيه، لقد تغلبت قوى جديدة على ماضيه وحاضره، ولم يستطع أن يتفاعل مع من تغلب عليه. ومنعهم الحسد والغيرة من الانقياد للدين الجديد، ومما زاد في تأزم اليهود أنهم جربوا محاربة الإسلام بوسائلهم التي كانوا يظنون أنها لا تقهر، فكان الفشل حليفهم، لذلك لجأوا إلى الطرق السلبية، والوسائل الملتوية، فالدعاء على الخصم مع التظاهر بالسلام هو سلاح العاجزين، ووسيلة الخائبين، وترياق الحاقدين[١].

ولما سمع رسول الله ﷺ ما صدر عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ دعاها إلى الرفق واللين، وبيّن لها أن المسلم لا يجوز له أن يترك الغضب يتحكم فيه، فالرفق في الإسلام ثمرة لا يثمرها إلا حسن الخلق، فالله رفيق يحب الرفق ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف[٢].

وأما نيلهم من المرسلين فقد أتى رسول الله ﷺ نفر من يهود فيهم أبو ياسر بن أخطب، ونافع بن أبي نافع، وعازر بن أبي عازر، وغيرهم، وسألوا رسول الله ﷺ عمن يؤمن به من الرسل، فقال ﷺ: «نؤمن بالله، وما أُنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى وما أُوتي النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون» فلما ذكر عيسى ـ عليه السلام ـ قالوا: لا نؤمن بعيسى ابن مريم، ولا نؤمن بمن آمن به[٣]، فأنزل الله فيهم:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩].

وأما في محاولاتهم للنيل من القرآن الكريم في أسئلتهم، ونقاشهم الذي لا ينتهي، فعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قالت أحبار اليهود: يا محمد، أرأيت قولك: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:

---

(١) انظر: حوار الرسول مع اليهود، د. محسن الناظر (ص ١٠١).

(٢) المصدر نفسه (ص ٨٧).

(٣) انظر: ابن هشام في السيرة (١/ ٥٦٧)، تفسير ابن جرير (١/ ٤٤٢)، وانظر: اليهود في السنة المطهرة ـ عبد الله الشقاري (١/ ٢٤٢، ٢٤٣).

٨٥] إيّانا تريد أم قومك؟ قال: «كُلاًّ» قالوا: فإنك تتلو فيما جاءك: أنا قد أوتينا التوراة فيها بيان كل شيء، فقال رسول الله ﷺ: «إنها في علم الله قليلٌ، وعندكم في ذلك ما يكفيكم لو أقمتموه»[1] قال: فأنزل الله تعالى عليه فيما سألوه عنه من ذلك: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

٤ ـ دعم حزب المنافقين وتآمرهم معهم:

حدثنا القرآن الكريم عن قيادة اليهود الفكرية لحزب المنافقين، فهم شياطين المنافقين يخططون لهم، ويوجهونهم، ويدرسونهم أساليب الكيد والمكر والخداع والدهاء، وإثارة الفتن، قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

قال النسفي في تفسيره: «وشياطينهم الذين ماثلوا الشياطين في تمردهم، وهم اليهود»[2].

وكان اليهود في المدينة يتآمرون مع المنافقين ضد المسلمين، وفي هذا التآمر قال تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء: ١٣٨ ـ ١٣٩].

قال الأستاذ محمد دَرْوَزَة: «وجمهور المفسرين على أن الكافرين هنا هم اليهود، وفي الآية قرينة على صحة ذلك، كما أن فيما بعدها قرينة ثانية أيضًا وواضح أن اتخاذ المنافقين اليهود أولياء، وتواثقهم معهم، إنما هما أثران من آثار التآمر الموطد بين اليهود والمنافقين تجاه الدعوة والقوة الإسلامية»[3].

وقد دفعوا المنافقين لإشعال حرب ضد رسول الله ﷺ، فعن عروة بن الزبير أن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ أخبره: أن رسول الله ﷺ ركب على حمارٍ على قطيفة فَدَكِيَّة، وأردف أسامة بن زيد وراءه، يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر، قال: حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أُبي ابن سَلول، وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أُبي، فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين، عبدة الأوثان، واليهود والمسلمين، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غَشِيَت المجلس عَجَاجةُ الدابة، خمّر عبد الله بن أُبي أنفه بردائه، ثم قال: لا تُغبِّروا علينا، فسلم رسول الله ﷺ عليهم ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أُبي ابن سلول: أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول، إن كان حقًّا فلا تؤذنا به في مجلسنا، ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه، فقال عبد الله بن رواحة:

---

(١) انظر: اليهود في السنة المطهرة (١/ ٢٤١)، وانظر تفسير ابن كثير: سورة الإسراء، آية (٨٥).

(٢) انظر: تفسير النسفي (١/ ٢١).

(٣) انظر: سيرة الرسول ﷺ لدَرْوَزَة (٢/ ١٧٩، ١٨٠).

obeikandi.com

بلى يا رسول الله فاغْشَنَا به في مجالسنا، فإنا نحب ذلك فاستبَّ المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون[١]، فلم يزل النبي ﷺ يُخَفِّضُهم حتى سكنوا، ثم ركب النبي ﷺ دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة فقال له النبي ﷺ: «يا سعد، ألم تسمع ما قال أبو حُبَاب ـ يريد عبد الله بن أُبي ـ قال كذا وكذا»، قال سعد بن عبادة: يا رسول الله اعف عنه واصفح عنه فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أَنزل عليك، ولقد اصطلح أهل هذه البُحَيْرَة[٢] على أن يُتَوِّجوه فَيُعَصِّبُوه بالعصابة، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شَرِقَ بذلك، فذلك فعل به مارأيتَ، فعفا عنه رسول الله ﷺ...[٣].

٥ ـ طعن اليهود فيمن آمن من الأحبار (عبد الله بن سَلَام) رضي الله عنه:

عندما بلغَ عبدَ الله بن سلام مَقْدَمُ رسول الله ﷺ المدينة، فأتاه فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي. قال: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ ومن أي شيء يَنْزِعُ الولد إلى أبيه؟ ومن أي شيء ينزع إلى أخواله؟ فقال رسول الله ﷺ: «خبَّرني بهن آنفًا جبريل»، قال: فقال عبد الله: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقال رسول الله ﷺ: «أما أول أشراط الساعة: فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة: فزيادة كبد حوتٍ، وأما الشَّبَهُ في الولد، فإن الرجل إذا غَشِيَ المرأة فسبقها ماؤُه كان الشبه له، وإذا سبق ماؤُها كان الشَّبَهُ لها» قال: أشهد أنك رسول الله، ثم قال: يا رسول الله إن اليهود قومٌ بُهْتٌ إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بَهَتُوني عندك، فجاءت اليهود ودخل عبد الله البيت، فقال رسول الله ﷺ: «أي رجل فيكم عبدُ الله بن سلام؟» قالوا: أعلمُنا وابن أعلمنا، وأخيرنا وابن أخيرنا، فقال رسول الله ﷺ: «أفرأيتم إن أسلم عبد الله؟» قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبد الله إليهم، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، فقالوا: شرُّنا وابن شرِّنا، ووقعوا فيه[٤].

فكانوا يؤذون من آمن من أحبارهم، ويثيرون حولهم الشكوك، ويقذفونهم بتهم باطلة قبيحة، وقد حدثنا القرآن الكريم عن هذه الوسيلة، ودافع عن هؤلاء المؤمنين الذين وجه اليهود ضدهم تلك الحملات الظالمة[٥]، قال تعالى: ﴿۞ لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ

---

(١) يتثاورون: أي يتواثبون والمعنى: كادوا أن يثب بعضهم على بعض فيقتتلوا، ويقال: ثار، إذا قام بسرعة وانزعاج.

(٢) البحيرة: لفظ يطلق على القرية والبلد، والمراد به هنا المدينة.

(٣) البخاري، كتاب التفسير ـ باب (١٥)، رقم (٤٥٦٦).

(٤) البخاري، كتاب الأنبياء ـ باب خلق آدم، رقم (٣٣٢٩).

(٥) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ٥٩).

بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عِمران: ١١٣ ـ ١١٥].

قال الواحدي في أسباب النزول: «قال ابن عباس ومقاتل: لما أسلم عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية[١]، وأسد بن عُبيد، ومن أسلم من اليهود، قالت أحبار اليهود: ما آمن لمحمد إلا شرارنا، ولو كانوا من خيارنا لما تركوا دين آبائهم، وقالوا لهم: لقد خنتم حين استبدلتم بدينكم دينًا غيره، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾[٢] [آل عِمران: ١١٣] الآية.

٦ ـ بث الإشاعات والشماتة بالنبي ﷺ والمسلمين:

كان اليهود يتحينون الفرص للنيل من المسلمين والبحث عما يفرق كلمتهم، ومن ذلك استغلالهم ـ في الأشهر الأولى من الشهر ـ لوفاة أحد النقباء الذين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة العقبة، وهو أبو أُمامة أسعد بن زُرارة الأنصاري الخزرجي ـ رضي الله عنه ـ فعندما أخذته الشوكة[٣] فجاءه رسول الله ﷺ يعوده، فقال: «بئس الميت ليهود» ـ مرتين ـ «سيقولون: لولا دفع عن صاحبه، ولا أملك له ضرًّا ولا نفعًا، ولأتمحَّلَنّ[٤] له» فأمر به فكُوي بخطين فوق رأسه فمات وفي رواية: «فكواه حَوْران»[٥]، على عنقه فمات، فقال النبي ﷺ: «بئس الميت لليهود؛ يقولون: قد داواه صاحبه أفلا نفعه»[٦]. ولم تكن حادثة أبي أمامة هي الحدث الوحيد الذي أبان الحقد اليهودي على المسلمين، فقد أشاعوا في أول الهجرة أنهم سحروا المسلمين فلا يولد لهم ولد، أشاعوا ذلك ليضيقوا على المسلمين الخناق، ويفسدوا عليهم حياتهم الجديدة التي عاشوها في مدينة رسول الله ﷺ، وليعكروا ذلك الجو الصافي الذي يملؤه الحب والتآلف بين المسلمين، ومما يدل على مقدار ما فعلته تلك الإشاعة بين المسلمين شدة الفرحة التي اعترتهم حيث ولد بينهم أول مولود ذكر من المهاجرين وهو عبد الله بن الزبير ـ رضي الله عنه ـ[٧].

فعن أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنها ـ أنها حملت بعبد الله بن الزبير في مكة قالت:

---

(١) قال ابن حجر: قيل سَعْنة ـ بالنون، وقيل بالياء التحتانية (الإصابة ـ ترجمة أسيد بن سَعْيَة)، وذكر ابن حجر اسمه «أسَد» بغير ياء في ترجمة: أسد بن سعية القرظي.

(٢) انظر: أسباب النزول للواحدي، سورة آل عمران، (ص ٦٦)، ط/دار الفكر.

(٣) الشَّوْكَة: حُمرة تعلو الوجه والجسد.

(٤) أَتَمَحَّلَنَّ: أي لأحاولن له في حيلة يشفى بواسطتها. انظر: النهاية (٤/٣٠٣).

(٥) حَوْران: هي كية مُدوَّرة من حار يحور إذا رجع، وحوّره إذا كواه هذه الكية وتسمى حوراء أيضًا. انظر: النهاية (١/٤٥٩).

(٦) انظر: مصنف عبد الرزاق (١٠/٤٠٧، رقم ١٩٥١٥). ومستدرك الحاكم، كتاب «الطب» (٤/٢١٤)، صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٧) انظر: اليهود في السنة المطهرة (١/٢٦٥).

فخرجت وأنا مُتِمٌّ، فأتيت المدينة، فنزلت قُباءَ، فولدت بقباء ثم أتيت به رسول الله ﷺ فوضعته في حَجْره، ثم دعا بتمرة فمضغها، ثم تفل في فيه فكان أول شيء دخل جوفه ريقُ رسول الله ﷺ، ثم حنَّكه بالتمرة، ثم دعا له فبَرَّكَ عليه، وكان أولَ مولود ولد في الإسلام، ففرحوا به فرحًا شديدًا لأنهم قيل لهم: إن اليهود قد سحرتكم فلا يولدُ لكم(١)، وفي رواية: «وسماه عبد الله، ثم جاء بعدُ وهو ابن سبع أو ابن ثمان سنين ليبايع النبيَّ ﷺ، أمره الزبير بذلك، فتبسم النبي ﷺ حين رآه مقبلاً إليه وبايعه، وكان أول من ولد في الإسلام بالمدينة مقدم رسول الله ﷺ، وكانت اليهود تقول: قد أخذناهم فلا يولد لهم بالمدينة ولد ذكر، فكَبَّر أصحاب رسول الله ﷺ حين ولد عبد الله»(٢).

٧ ـ موقفهم من تحويل القبلة:

تكاد تكون حادثة تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة هي الفاصل بين الحرب الكلامية وحرب المناوشات والتدخل الفعلي من جانب اليهود، لزعزعة الدولة الإسلامية الناشئة(٣)، فعن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ كان أولَ ما قدم المدينة نزل على أجداده ـ أو قال: أخواله ـ من الأنصار وأنه ﷺ صلى قِبَلَ بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا، وكان يعجبه أن تكون قبلتُه قِبَلَ البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم فخرج رجل ممن صلى معه فمر على أهل مسجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قِبَلَ مكة، فداروا كما هم قِبَلَ البيت، وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يُصلى قِبَلَ بيت المقدس، وأهلُ الكتاب، فلما ولى وجهه قِبَل البيت أنكروا ذلك(٤)، وقد نزلت في هذه الحادثة آيات عظيمة فيها عبر وحكم ودروس للصف المسلم، قال تعالى:

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البَقَرَة: ١٤٩ ـ ١٥٢].

---

(١) البخاري، كتاب العقيقة ـ باب تسمية المولود، ورقمه (٥٤٦٩) واللفظ له، ومسلم كتاب الآداب ـ باب استحباب تحنيك المولود، ورقمه (٢٥ ـ ٢١٤٦).

(٢) انظر: المستدرك، للحاكم: كتاب معرفة الصحابة (٣/ ٥٤٨)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٣) انظر: اليهود في السنة المطهرة (١/ ٢٥٨).

(٤) البخاري: كتاب الإيمان، باب الصلاة من الإيمان، ورقمه (٤٠).

obeikandi.com

● أخبر الله تبارك وتعالى بما سيقول اليهود عند تحول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، من إثارة الشكوك والتساؤلات قبل وقوع الأمر ولهذا دلالته، فهو يدل على نبوة محمد ﷺ إذ هو أمر غيبي، فأخبر عنه قبل وقوعه ثم وقع، فدل ذلك على أن محمدًا ﷺ رسول ونبي يخبره الوحي بما سيقع، إذ من الأدلة على صدق رسالة الرسول أن يخبر بأمور غيبية ثم تقع بعد.

وهو يدل أيضًا على علاج للمشاكل قبل حدوثها حتى يستعد المسلمون ويهيئوا أنفسهم لهذه المشاكل للتغلب عليها، والرد عليها ودفعها؛ لأن الأمر حين يكون مفاجئًا لهم يكون وقعه على النفس أشد، ويربك المفاجأ به، أما حين يُحدَّثون عنه قبل وقوعه فالحديث يطمئنهم ويوطن نفوسهم ويعدها لمواجهة الشدائد[1]، قال أبو السعود في تفسيره: «وأخبر بالأمر قبل وقوعه لتوطين النفوس وإعدادها لما يبكتهم، فإن مفاجأة المكروه على النفس أشق وأشد، والجواب العتيد لشغب الخصم الألد أرد»[2]، وقد وصف الله تعالى اليهود بالسفه لاعتراضهم على تحويل القبلة وللكيد ضد رسول الله ﷺ، قال أبو السعود: «والسفهاء الذين خفت أحلامهم واستمهنوها بالتقليد والإعراض عن التدبر والنظر. وقولهم: ثوب سفيه إذا كان خفيف النسيج، وقيل: السفيه البهات الكذاب المتعمد خلاف ما يعلم، وقيل: الظلوم الجهول، والسفهاء هم اليهود»[3].

●﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فالآية تذكر أن الصلاة نحو بيت المقدس كانت فتنة، أي اختبار، والتحول من بيت المقدس إلى الكعبة كان أيضًا اختبارًا وامتحانًا، قال البيضاوي في تفسيره: «وما جعلنا قبلتك بيت المقدس إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه إلا لنمتحن به الناس، ونعلم من يتبعك في الصلاة إليها ممن يرتد عن دينك إلفًا لقبلة آبائه، أو لنعلم من يتبع الرسول ممن لا يتبعه، وما كان لعارض يزول بزواله، وعلى الأول معناه: ما رددناك إلى التي كنت عليها إلا لنعلم الثابت على الإسلام ممن ينكص على عقبيه لقلقه وضعف إيمانه[4].

فالصلاة إلى الكعبة في بداية الأمر، ثم الصلاة إلى بيت المقدس، ثم العودة إلى الكعبة واستمرار ذلك لا شيء فيه مادام الباري سبحانه أمر بذلك، ومن ثم فالتوجه في كل حالة هو

---

(١) انظر: الصراع مع اليهود، د. محمد أبو فارس (١/ ١٠٢).
(٢) انظر: تفسير أبي السعود (١/ ١٧١).
(٣) المصدر نفسه (١/ ١٧٠).
(٤) انظر: تفسير البيضاوي نقلاً عن الصراع مع اليهود (١/ ١٠١).

عبادة، وما على الناس إلا أن ينقادوا لأمر الله تبارك وتعالى، ويلتزموا بأمره، فالذي يتبع الرسول وينقاد لأوامره في القبلة يعد فائزًا في الاختبار والامتحان، والذي يجد في نفسه على حكم من الأحكام الشرعية كان ساقطًا وهالكًا، والإيمان الحق هو الذي يلزم صاحبه بالاتباع ومخالفة الهوى(١)، ولهذا ثبت الصحابة الكرام واستجابوا لأوامر الله تعالى، فعن ابن عمر - رضي الله عنه - قال: بينما الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آتٍ فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أُمر أن يستقبل الكعبة، فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة(٢).

وتبين الآية الكريمة كذلك حرص المؤمنين على إخوانهم وحب الخير لهم، حينما نزلت الآيات التي تأمر المؤمنين بتحويل القبلة إلى الكعبة، تساءل المؤمنون مشفقين عن مصير عبادة إخوانهم الذين ماتوا وقد صلوا نحو بيت المقدس، فأخبر الله عز وجل أن صلاتهم مقبولة، فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: لما وُجِّه النبي ﷺ إلى الكعبة، قالوا: يا رسول الله، كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾(٣) [البقرة: ١٤٣]، وبين لهم أنه رءوف رحيم «وبهذا يسكب في قلوب المسلمين الطمأنينة، ويذهب عنها القلق، ويفيض عليها الرضا والثقة واليقين»(٤).

• ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٤٤-١٤٨].

كان رسول الله ﷺ حريصًا على أن يتوجه في صلاته إلى كعبة أبيه إبراهيم - عليه السلام - فهو أولى الناس به، لأنه من ثمرة دعوة أبيه إبراهيم - عليه السلام - وحامل لواء التوحيد بحق كما حملها إبراهيم - عليه السلام - وهو ﷺ كان يحرص على أن يكون مستقلاً ومتميزًا عن أهل الديانات السابقة، الذين حرفوا وبدلوا وغيروا كاليهود والنصارى، ولهذا كان ينهى عن تقليدهم والتشبه بهم، بل يأمر بمخالفتهم، ويحذر من الوقوع فيما وقعوا فيه من الزلل والخطإ

---

(١) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ١٠١).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٧٥)، ط/ دار الشعب.

(٣) انظر: سنن الترمذي (٥/ ٢٠٨)، ورقمه (٢٩٦٤) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) في ظلال القرآن (١/ ١٣٣).

والانحراف، ومقتضى هذا الحرص أن يتوجه في صلاته بشكل دائم إلى قبلة أبي الأنبياء، وهو أول بيت وضع للناس[(١)].

إن لحادثة تحويل القبلة أبعادًا كثيرةً: منها السياسي، ومنها العسكري، ومنها الديني البحت، ومنها التاريخي؛ فبُعدها السياسي أنها جعلت الجزيرة العربية محور الأحداث، وبُعدها التاريخي أنها ربطت هذا العالم بالإرث العربي لإبراهيم ـ عليه السلام ـ وبُعدها العسكري أنها مهدت لفتح مكة وإنهاء الوضع الشاذ في المسجد الحرام حيث أصبح مركز التوحيد مركزًا لعبادة الأصنام، وبُعدها الديني أنها ربطت القلب بالحنيفية، وميزت الأمّة الإسلامية عن غيرها، والعبادة في الإسلام عن العبادة في بقية الأديان[(٢)].

● ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٤٩ ـ ١٥٢].

كأن الله تعالى يقول للمؤمنين: إن نعمة توجيهكم إلى قبلتكم، وتمييزكم بشخصيتكم من نعائم الله عليكم، وقد سبقتها الآلاء من الله كثيرة ومنها:

ـ ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا﴾: فوجود شخص رسول الله ﷺ إمام المربين والدعاة، هو من خصيصة هذه النخبة القيادية التي شرفها الله تعالى بأن يكون هو المسئول عن تربيتها، فقيه النفوس، وطبيب القلوب، ونور الأفئدة، فهو النور والبرهان والحجة.

ـ ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾: فالمادة الأساسية للبناء والتربية: كلام الله تعالى، وكان يرافقه شحنة عظيمة لنزوله أول الأمر غضًا طريًا، فكان جيلاً متميزًا في تاريخ الإنسانية.

ـ ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ فالمعلم المربي رسول الله ﷺ فهو المسئول عن عملية التربية، وهو الذي بلغ من الخلق والتطبيق لأحكام القرآن الكريم ما وصفه الله ـ تعالى ـ به من هذا الوصف الجامع المانع الذي تفرد به من دون البشرية كافة: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: الآية ٤]، وهو الذي وصفته عائشة ـ رضي الله عنها ـ بأعظم ما يملك بشر أن يصف به نبي فقالت: «كان خلقه القرآن»، فكان الصحابة يسمعون القرآن الذي يتلى من فم رسول الله ﷺ ويرون القرآن الذي يمشي على الأرض متجسدًا في خلقه الكريم.

ـ ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾: فهذه المهمة الثالثة تعليم الصحابة الكرام الكتاب والحكمة،

---

(١) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ١٠٠).

(٢) انظر: الأساس في السنة (١/ ٤٤٠).

فالقرآن الكريم لكي يكون مؤثرًا في الأمة لا بد من المربي الرباني الذي يزكي النفوس ويطهر القلوب، ويعلمها شرع الله تعالى من خلال القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين ﷺ، فيشرح للمسلمين غامضه ويبين مُحكمه ويفصل مجمله، ويسأل عن تطبيقه، ويصحح خطأ الفهم لهم إن وجد، كان الرسول ﷺ يعلم ويربي أصحابه لكي يُعلِّموا ويربوا الناس على المنهج الرباني، فتعلم الصحابة من رسول الله ﷺ منهج التعليم، ومنهج التربية، ومنهج الدعوة، ومنهج القيادة للأمة من خلال ما تسمع وما تبصر، ومن خلال ما تعاني وتجاهد، فاستطاع ﷺ أن يعد الجيل إعدادًا كاملاً، ومؤهلاً لقيادة البشرية، وانطلق أصحابه من بعده يحملون التربية القرآنية، والتربية النبوية إلى كل صُقْع، وأصبحوا شهداء على الناس.

- ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ : ماذا كانوا قبل الوحي، والرسالة، وماذا أصبحوا بعد ذلك؟ كانوا في حروب وصراع وجاهلية عمياء، وأصبحوا بفضل الله ومنّه وكرمه أمة عظيمة، لها رسالة وهدف في الحياة، لا همّ لها إلا العمل ابتغاء مرضاته سبحانه وتعالى، وحققوا العبودية لله وحده، والطاعة لله، ولرسوله ﷺ، وانتقلوا من نزعة الفردية والأنانية والهوى إلى البناء الجماعي، بناء الأمة، وبناء الدولة وصناعة الحضارة، واستحقت بفضل الله ومنّه أعظم وسامين في الوجود[1].

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: الآية ١١٠].

ووسام: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البَقَرَة: ١٤٣].

- ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ : فهذه المنن، وهذه العطايا، وهذه الخيرات تحتاج لذكر الله في الغدو والآصال وشكره عليها، وحثهم المولى عز وجل على ذكره، وبكرمه يذكرون في الملإ الأعلى بعدما كانوا تائهين في الصحارى ضائعين في الفيافي.

- ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ : وحقّ لهذه النعم جميعًا أن تشكر[2].

وهكذا، الآيات الكريمة تربي الصحابة من خلال الأحداث العظيمة، وتصوغ الشخصية المسلمة القوية التي لا ترضى إلا بالإسلام دينًا، والتي تعرفت على طبيعة اليهود من خلال

---

(١) انظر: التربية القيادية، منير الغضبان (٢/ ٤٣٨ـ ٤٤٢) بتصرف.

(٢) انظر: التربية القيادية (٢/ ٤٤٢).

القرآن الكريم وبدأت تتعمق في ثناياها طبيعتهم الحقيقية، وانتهت إلى الصورة الكلية النهائية التي تربوا عليها من خلال القرآن الكريم والتربية النبوية قال تعالى:

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البَقَرَة: ١٢٠].

٨ ـ من صفات اليهود في القرآن الكريم:

إن المتتبع لتاريخ اليهود ومواقفهم مع المصطفى ﷺ يشاهد تلك الأفعال القبيحة والأخلاق الرذيلة التي يتصف بها هؤلاء البشر، ولا غرابة في ذلك فهي طبيعة كل آدمي ينسلخ عن دينه الصحيح، وعقيدته السليمة.

كانت معاناة رسول الله ﷺ والمسلمين من اليهود شديدة وأليمة، فالقرآن الكريم تحدث عن بعضها، وكتب السنة، والسيرة والتاريخ حافلة بالأحداث الجسيمة مع اليهود، وقد تحدث القرآن الكريم، وبينت السنة النبوية صفاتهم القبيحة كالنفاق، وسوء الأدب مع الله ورسوله، والمكر والخداع، والمداهنة، وعدم الانتفاع بالعلم، والحقد والكراهية، والحسد، والجشع، والبخل، ونكران الجميل، وعدم الحياء، والغرور، والتكبر، وحب الظهور، والإشراك في العبادة، ومحاربة الأنبياء والصالحين، والتقليد الأعمى، وكتمان العلم، وتحريف المعلومات، والتحايل على المحرمات، والتفرق، والطبقية في تنفيذ الأحكام، والرشوة، والكذب، والقذارة[(١)]، وسوف نشير إلى بعض هذه الصفات الذميمة التي جاءت في القرآن الكريم.

● الإشراك في العبادة:

فعبادة اليهود شركية باطلة، حيث يعتقدون أن الله ولدًا، ويشركون معه في عبادته غيره، وقد سجل الله عز وجل عليهم بعض مظاهر الإشراك، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣٠، ٣١].

فهم لم يكتفوا في الإشراك بالقول المتقدم؛ بل عبدوا أنبياءهم وصالحيهم، واتخذوا قبورهم مساجد وأوثاناً يعبدونها من دون الله[(٢)]، قال ﷺ: «قاتل الله اليهود، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[(٣)].

---

(١) راجع الرسالة القيمة «اليهود في السنة المطهرة» د. عبد الله الشقاري.

(٢) انظر: اليهود في السنة المطهرة (٢/٥٠٧).

(٣) البخاري: كتاب الصلاة ـ باب (٥٥). . . رقم (٤٣٧).

● **محاربة الأنبياء والصالحين:**

في الوقت الذي يقدسون فيه أحبارهم ورهبانهم إلى درجة العبادة نجد اليهود في المقابل لا يتورعون في محاربة أنبيائهم وصالحيهم، ويشنون عليهم الحملات المغرضة بشتى الطرق، وكافة الوسائل، ولا يمتنعون حتى عن قتلهم كما فعلوا بزكريا ويحيى ـ عليهما السلام ـ(١)، وقد أخبرنا الله عز وجل عنهم بذلك فبعد أن بيَّن عز وجل ألوانًا من العذاب أوقعه عليهم قال: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

● **كتمانهم العلم وتحريفهم للحقائق:**

إن كتمان العلم وتحريف الحقائق صفة ملازمة لليهود من قديم الزمن، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «قيل لبني إسرائيل: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾(٢) فبدلوا، فدخلوا يزحفون على أَستاهِهِم، وقالوا: حَبَّةٌ في شعرة»(٣).

ومن أعظم العلوم التي كتمها أحبار اليهود، وحاولوا إخفاء حقيقتها، علم نبوة محمد ﷺ، فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: جاء رسول الله ﷺ رافعُ بن حارثة، وسلاَّم بن مِشْكم، ومالك بن الصَّيف، ورافع بن حُريملة، فقالوا: يا محمد ألست تزعُم أنك على ملة إبراهيم ودينه، وتؤمن بما عندنا من التوراة، وتشهد أنها من الله حق؟ فقال رسول الله ﷺ: «بلى، ولكنكم أحدثتم وجحدتم مافيها مما أخذ الله عليكم من الميثاق فيها، وكتمتم منها ما أُمرتم أن تبينوه للناس، فَبَرِئْتُ من إحداثكم»، قالوا: فإنا نأخذ بما في أيدينا، فإنا على الهدى والحق، ولا نؤمن بك ولا نتبعك؛ فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨](٤).

---

(١) انظر: اليهود في السنة المطهرة (٢/٥٠٩).

(٢) كذا ورد اللفظ في صحيح البخاري «ادخلوا» بغير «واو»، ولفظ الكلمة في القرآن الكريم. ﴿وَٱدْخُلُوا۟﴾ [البقرة: ٥٨]، وليس في ورود اللفظة في صحيح البخاري بغير «واو» غلط البتة، إذ المراد والله أعلم: تبيين أن بني إسرائيل أمروا بكذا ـ «المراجع».

(٣) البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء (٦/ ٤٣٦ـ رقم ٣٤٠٣). وفي موضعين آخرين.

(٤) سيرة ابن هشام (ق ١/ ٥٦٧، ٥٦٨) واللفظ لفظها، تفسير الطبري، الأثر رقم (١٢٢٨٤) وهو أقرب الألفاظ لألفاظ سيرة ابن هشام، والأثر رقم (١٢٢١٩) عند تفسير الآية (٦٨)، والآية (٥٩) من سورة المائدة، والأثر (٢١٠١) عن تفسير الآية (١٣٦) من البقرة. وقال الإمام ابن حجر عن الآية (٦٨) من المائدة: وقد روى ابن أبي حاتم أن الآية نزلت في سبب خاص، فأخرج بإسناد حسن من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال. . . ثم ساق الأثر (فتح الباري ٨/ ٢٦٩).

obeikandl.com

● **التفرق:**

إن اليهود دائمًا وأبدًا مختلفون في الأفكار، مفترقون في الأحكام، تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتى، تمامًا كما وصفهم الباريﷻ في قوله تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤].

● **الرشوة:**

إن من سمات اليهود في معالم مجتمعاتهم بحثهم عن تحقيق الغاية التي ينشدونها بشتى السبل والوسائل، ولو كانت مخالفة لشرعهم كدفع الرشوة والمال الحرام، فأكل السحت من رشوة ومال حرام من طباعهم، وقد وصفهم الحق سبحانه وتعالى بذلك: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

● **النفاق:**

وقد أظهر بعض زعماء اليهود الإسلام حين قويت شوكة المسلمين بالمدينة وتستروا بالنفاق، وقد سجل الله عليهم ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة: ١٤ ـ ١٥].

● **المداهنة:**

فكانوا يسايرون الواقع والمجتمع، ولا ينكرون المنكر، ولذلك لعنهم اللهﷻ وسجل لعنته عليهم في كتابه العزيز: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨ ـ ٧٩].

● **عدم الانتفاع بالعلم:**

وقد أخبرنا الله تعالى بذلك وصور هذه الصفة تصويرًا دقيقًا[1] قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

● **الحقد والكراهية:**

من صفات اليهود المستقرة في أعماق نفوسهم الحقد على كل شيء ليس منهم،

(١) انظر: اليهود في السنة المطهرة (٢/ ٤٦٣ ـ ٤٨٢).

والكراهية لكل ماهو غير يهودي، مهما كان نوعه ومصدره، وخاصة إذا كان يمت إلى رسول الله ﷺ بصلة، كما حصل في أمر القبلة، وما حصل في تحريم الخمر، فعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: لما نزلت تحريم الخمر، قالت اليهود: أليس إخوانكم الذين ماتوا كانوا يشربونها، فأنزل الله ﷻ: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ [المَائدة: ٩٣] فقال النبي ﷺ: «قيل لي: أنت منهم»(١).

● **الحسد:**

فقد حسد اليهود النبي ﷺ على الرسالة، إذ كانوا يظنون أن الرسول الذي سيبعث سيكون منهم يتجمعون حوله ويقاتلون به أعداءهم، فلما بُعث الرسول ﷺ من غيرهم جنّ جنونهم، وطار صوابهم، ووقفوا يعادونه عداوة شديدة، ولقد حسدوا أصحابه على الإيمان ونعمة الهدى التي شرح الله صدورهم لها(٢).

قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البَقَرَة: ١٠٩].

● **الغرور والتكبر:**

اتصف اليهود بالغرور والتكبر على الخلق من قديم الزمان، فهم يرون أنهم أرقى من الناس، وأفضل من الناس، ويزعمون أنهم شعب الله المختار، ويعتقدون أن الجنة لليهودي وأن طريق اليهودية هي طريق الهداية وسواها ضلال، وقد أخبر المولى ﷻ في كتابه عن هذه الخصلة الذميمة(٣) فيهم قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البَقَرَة: ١١١].

وقد مارسوا ذلك الغرور والتعالي على رسول الله ﷺ بشتى الوسائل والصور، ومن ذلك هذه الصورة(٤)، فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: أتى رسول الله ﷺ نُعمانُ بن أضاء وبَحْريّ بن عمرو، وشأس بن عدي فكلموه، فكلمهم رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الله وحذرهم نقمته، فقالوا: ما تُخوّفنا يا محمد، نحن والله أبناء الله وأحباؤه ـ كقول النصارى ـ فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ..... ﴾ إلى آخر الآية(٥) [المَائدة: ١٨].

---

(١) انظر: المستدرك للحاكم: كتاب الأشربة (٤/ ١٤٣، ١٤٤)، صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.
(٢) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ٧٠).
(٣) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ٧١).
(٤) انظر: اليهود في السنة المطهرة (٢/ ٤٩٥، ٤٩٦).
(٥) انظر: تفسير الطبري، واللفظ له بالأثر رقم (١١٦١٣) عند تفسير الآية (١٨) من المائدة، سيرة ابن =

● **البخل:**

من صفات اليهود القديمة بخلهم بالمال، وعدم إنفاقه في سبيل الخير، فكانوا يأتون رجالاً من الأنصار ويقولون لهم: لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشى عليكم الفقر في ذهابها، ولا تسارعوا في النفقة، فإنكم لا تدرون علام يكون[١] فأنزل الله فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: الآية ٣٧] أي من التوراة التي فيها تصديق ما جاء به محمد ﷺ: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٩].

● **العناد:**

رغم قيام الأدلة والبراهين على صدق نبوة ورسالة محمد ﷺ إلا أن اليهود بسبب عنادهم امتنعوا عن الإيمان، وانغمسوا في الكفر والتكذيب، لأن العناد يقفل العقول بأقفال الهوى وقد بيّن المولى عز وجل هذه الصفة في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

نعم لو قدمت لهم يا محمد ألف دليل ودليل؛ ما اقتنعوا، وما غيروا وبدلوا، ويصدق[٢] فيهم قول الله تعالى: ﴿... وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

هذه بعض الصفات التي تجسدت في الشخصيات اليهودية، والتي أشار القرآن الكريم إليها لنعرف اليهود على حقيقتهم، حتى لا يغتر المسلمون بهم في أي وقت أو أي زمان أو أي مكان.

رابعًا: (إن الله لا يصلح عمل المفسدين):

إن هذه الوثيقة وضحت مدى العدالة التي تميزت بها معاملة النبي ﷺ لليهود، وأعطت لمواطني الدولة مفهوم الحرية الدينية وضربت عرض الحائط بمبدإ التعصب ومصادرة الأفكار والمعتقدات، ولم تكن المسألة مسألة تكتيك مرحلي ريثما يتسنى للرسول ﷺ تصفية أعدائه في الخارج لكي يبدأ تصفية أخرى إزاء أولئك الذين عاهدهم.. وحاشاه وإنما صدر هذا الموقف وَفْقَ سياسة إسلامية منبثقة من شريعة ربانية[٣].

لقد عقد الرسول ﷺ مع اليهود المعاهدات التي تؤمن لهم الحياة الكريمة، في ظل

= هشام (ق ١/ ٥٦٣).

(١) انظر: اليهود في السنة المطهرة (٢/ ٤٨٧، ٤٨٨).

(٢) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ٧٢).

(٣) انظر: دراسات في السيرة (ص ١٥١).

الدولة الإسلامية بحكم أنهم أهل كتاب (أهل الذمة) ولكن طبيعة اليهود الغدر والخيانة وعدم الوفاء، ولم يستطيعوا ـ ولن يستطيعوا لؤماً وخسة ـ أن يتخلوا عن تلك الصفات الذميمة، فنقضوا عهودهم مع رسول الله ﷺ، وكانت نهايتهم بما يتلاءم مع تلك الأفعال حيث أجلى رسول الله ﷺ بني قينقاع وبني النضير، وقتل رجال بني قريظة[١]، وهذا ما سوف نراه بإذن الله تعالى في هذا الكتاب، ولقد أشار القرآن الكريم إلى طبيعة اليهود مع العهود، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٥٦] .

والعهد هنا ما عقده رسول الله ﷺ مع اليهود من عهود ومواثيق بألا يحاربوه ولا يعاونوا عليه، كما بين ذلك المفسرون[٢].

لقد سلك اليهود وسائل عدة، ومتغايرة ومتنوعة للكيد لرسول الله ﷺ والذين آمنوا معه ومقاومتهم، إلا أن هذه الوسائل لم تفلح ولم تؤت ثمارها المرجوة منها، وهي القضاء على جماعة المسلمين ودولتهم وكيانهم السياسي، فما أسباب ذلك؟

بسبب تلك التربية النبوية الرشيدة التي غرست معاني الإيمان في القلوب، وحققت العبودية الخالصة لله وحاربت الشرك بجميع أشكاله، وعلمت الصحابة الأخذ بأسباب النهوض والتمكين المعنوية والمادية، فقد ربى النبي ﷺ أصحابه على العزة، والنخوة، والرجولة، والشجاعة، ورفض الذل، ومقاومة الظلم، وعدم الاستسلام لمؤامرات اليهود وغيرهم، بل مقاومتها والقضاء عليها وعلى أهلها، فثابروا وصابروا حتى انتصروا على أعدائهم[٣].

كان مكر اليهود في غاية الدهاء تكاد تزول منه الجبال، ولكنه لم يفلح مع الرعيل الأول بسبب القيادة النبوية والمنهج الرباني الذي سار عليه رسول الله ﷺ[٤].

إن المسلمين اليوم يتساقطون أمام المخططات اليهودية ومؤامراتها، لبعدهم عن المنهاج النبوي في تربية الأمة وكيفية التعامل مع اليهود، فالأمة في أشد الحاجة للقيادة الربانية الحكيمة الواعية الموفقة من عند الله، الخبيرة بأخلاق اليهود وصفاتهم، فتتعامل معهم معاملة واعية مستمدة أصولها من السياسة النبوية الراشدة في التعامل مع هذا الصنف المنحرف من البشر.

إن في عصرنا هذا تغلغلت الأصابع اليهودية القذرة في مجالات عديدة من حياة الشعوب والدول، تلك الأصابع التي تهدف إلى غاية محدودة هي (الفساد في الأرض) وهذا هو التعبير القرآني: ﴿وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗا﴾ [المَائدة: ٣٣] .

---

(١) انظر: العهد والميثاق في القرآن الكريم، د. ناصر العمر (ص ١٢١).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٨/ ٣٠)، والتحرير والتنوير (١٠/٤٨).

(٣) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ٨٠).

(٤) انظر: (١/٧٩).

إن استعمال الفعل المضارع في الجملة يدل على التجدد والاستمرار، فليس سعيهم للفساد مرحلة تاريخية انتهت، لكنه قدرهم الكوني إلى يوم يبعثون، وقد استطاع اليهود أن يهيمنوا على كثير من مقدرات الأمم من خلال كيدهم المدروس، وفي غيبة الوجود الإسلامي القادر على إحباط مؤامراتهم وفضح ألاعيبهم.

إن العبقرية اليهودية في الهدم والتخريب ليست موضع جدل، تلك العبقرية التي (تستغل) الأحداث وتستثمرها لمصلحتها، وإن لليهود وجودًا مؤثرًا في الدول الكبرى، اقتصاديًّا وسياسيًّا، وإعلاميًّا، ولم يكونوا غائبين في النظامين العالميين، الرأسمالية والشيوعية ولا عن الثورات الكبرى في العالم، وهناك عدد من المنظمات العالمية تبذل جهدًا ضخمًا في تحقيق أهداف اليهود، أبرزها الماسونية.. (الليونز) و(الروتاري) و(شهود يهوه)... إلخ.

ألا يحس الباحث الواعي أن في الأمر نوعًا من المبالغة المقصودة أو غير المقصودة؟

هذه الصورة الجاثمة في عقول الكثيرين أن اليهود هم الذين يحركون العالم، وهم زعماؤه السياسيون ومفكروه ومبدعوه و... و... وأن الشخصيات المهمة من غير اليهود ماهي إلا (أحجار على رقعة الشطرنج) على حد تعبير وليام غاي كار[١].

إن هذا الكم الهائل من الكتب التي تتحدث عن اليهود ودورهم العالمي الخطير، تساهم في تهيئة الجو للتسليم بالأمر الواقع، وتمنح تفسيرًا جاهزًا لجميع الهزائم التي منيت بها الأمة، الهزائم الحضارية والعسكرية على حد سواء.

إن إحساس الناس بأن (كل شيء) مدبر ومبيت ومدروس من قبل اليهود أو محافلهم، يقعد بهم عن المقاومة والمواجهة والجهاد، وما يقال عن اليهود يمكن أن يقال عن أي عدو آخر ينتهج سياسة الإرهاب الفكري والعسكري، فمثلاً الجماعات الباطنية في العالم الإسلامي التي أصبحت ذات وجود قوي في عدد من المواقع والدول، بل وأصبح لهم وجود قائم بذاته في أكثر من بلد إسلامي.

هذه الجماعات تجد أحيانًا من يهول من شأنها ويعطيها أكبر من حجمها، فكل من يتحدث ـ مثلاً ـ عن هذه الفئة الغالية المنحرفة أو يكتب أو يحاضر فهو مهدد في رزقه وحياته، إذن فيسكت الجميع حفاظًا على أرزاقهم وأرواحهم[٢]، إن هذا التضخيم الرهيب لأعدائنا اليهود ليس له حقيقة، لأن أولياء الشيطان كيدهم مهما عظم وكبر فهو ضعيف.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

---

(١) انظر: قضايا في المنهج، سلمان العودة (ص ٨٤، ٨٥).

(٢) انظر: قضايا في المنهج (ص ٨٦).

obeikandi.com

إن قوتهم بسبب ضعف إيماننا وبعدنا عن منهج ربنا، لأن الإيمان الصحيح تنهار أمامه جميع المؤامرات، وتفشل جميع الخطط، لكن لا بد من نزع عنصر الخوف الذي قتل كثيراً من الهمم، وأحبط كثيراً من الأعمال. والأحداث تؤكد أن (الوهم) قد يقتل.

وحين توجد الفئة المؤمنة الصابرة يتحطم الكيد كله ـ يهوديًا ـ كان أم غير يهودي ـ أمام عوامل التصدي والنهوض.

قال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عِمرَان: ١٢٠].

وهذا لا يعني ـ بحال من الأحوال ـ تجاهل قوة العدو أو التقليل من شأنه، حتى لو كان عدوًا حقيرًا فضلاً عن عدو ومدجج وقديم.

والمطلوب أن نسلك طريق الاعتدال في تقدير حجم العدو، فلا نبالغ في تهويل قوته بما يوهن قوانا ويفتت عزيمتنا ويسوغ لنا الهزيمة، وفي المقابل لا نستهين به أو نتجاهل وجوده(١).

وستمضي في اليهود وغيرهم سنةُ الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يُونس: ٨١].

المبحث الرابع

سنة التدافع وحركة السرايا

أولاً: سنة التدافع:

إن من السنن التي تعامل معها النبي ﷺ: سنة التدافع، وتظهر جليًا في الفترة المدنية مع حركة السرايا والبعوث والغزوات التي خاضها النبي ﷺ ضد المشركين. وهذه السُّنة متعلقة تعلقًا وطيدًا بالتمكين لهذا الدين، وقد أشار الله تعالى إليها في كتابه العزيز وجاء التنصيص عليها في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٥١].

وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحَجّ: ٤٠].

ونلاحظ في آية البقرة أنها جاءت بعد ذكر نموذج من نماذج الصراع بين الحق والباطل

---

(١) انظر: قضايا في المنهج، (ص ٨٦، ٨٧).

المتمثل هنا في طالوت وجنوده المؤمنين، وجالوت وأتباعه، ويذيِّل الله الحق الآية بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥١] (مما يفيد أن دفع الفساد بهذا الطريق إنعام يعم الناس كلهم)[١].

وتأتي آية الحج بعد إعلان الله تعالى أنه يدافع عن أوليائه المؤمنين، وبعد إذنه لهم ـ سبحانه ـ بقتال عدوهم ويختتم الآية بتقرير الله تعالى لقاعدة أساسية: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

فكان تشريع القتال على مراحل:

المرحلة الأولى: الحظر، وذلك عندما كان المسلمون في مكة، وكانوا يطالبون النبي ﷺ بالإذن لهم في القتال فيجيبهم: «اصبروا فإني لم أؤمر بالقتال»[٢].

المرحلة الثانية: الإذن به من غير إيجاب، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ [الحَجّ: ٣٩].

المرحلة الثالثة: وجوب قتال من قتال من قاتل المسلمين، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البَقَرَة: ١٩٠].

المرحلة الرابعة: فرض قتال عموم الكفار على المسلمين قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [التّوبَة: ٣٦].

إن هذا التدرُّج في حكم القتال كان يقتضيه وضع الدولة الإسلامية الناشئة، وحالة الجيش الإسلامي الذي كان يأخذ في التكوين من حيث العَددُ والعُدد والتدريب، وما إلى ذلك فكان لا بُدَّ من مضي فترة من الوقت يكون التعرُّضُ فيها لأعداء الدعوة الإسلامية من كفار قريش الذين آذوا المسلمين، واضطروهم إلى الخروج من ديارهم.. يكون فيها ذلك التعرُّض لأعداء الدعوة، إنما هو على سبيل الاختيار لا على سبيل الإجبار، وذلك إلى أن يَصْلُبَ عودُ الدولة الإسلامية ويشتد بأسها بحيث تستطيع الصمود أمام قوى الكفر في الجزيرة العربية، حتى لو عملت قريش على تأليبها ضد المسلمين، كما وقع فيما بعد! وحينئذٍ يأتي وجوب القتال في حالة تكون فيها أوضاع الدولة الإسلامية والجيش الإسلامي على أهبة الاستعداد لمواجهة كافة الاحتمالات، هذا فيما يتصل بالقتال الذي يتعرض فيه المسلمون لكفار قريش، جاء النص بالإذن، أي بالإباحة لا بالوجوب، أما في حالة ما لو تعرض فيه المسلمون ـ وهم في دولتهم في المدينة ـ لهجوم الأعداء عليهم فالقتال هنا فرض، لا مجال فيه للخيار، وليس مجرد أمر مأذون فيه، وذلك تطبيقًا لبيعة الحرب، بيعة العقبة الثانية التي أوجبت على الأنصار حرب

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الفخر الرازي (٣/ ٥١٤).

(٢) انظر: تفسير الألوسي (٦/ ١٠٨).

الأحمر والأسود من الناس في سبيل الذود عن الدعوة الإسلامية، وصاحبها وأتباعها[١].

ومع نزول الإذن بالقتال شرع رسول الله ﷺ في تدريب أصحابه على فنون القتال والحروب، واشترك معهم في التمارين والمناورات والمعارك، وعدّ السعي في هذه الميادين من أجلِّ القربات وأقدس العبادات التي يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى، وقد قام النبي ﷺ بتطبيق قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠] وكان منهجه ﷺ في تكوين المجاهد المسلم يعتمد على نهجين متوازنين: التوجيه المعنوي، والتدريب العملي.

١ ـ التوجيه المعنوي:

فكان ﷺ يسعى إلى رفع معنويات المجاهدين يمنحهم أملاً يقينيًا بالنصر أو الجنة، ومنذ تلك اللحظات وفيما بعد ظلَّ هذا (الأمل) يحدو الجندي المسلم في ساحات القتال، ويدفعه إلى بذل كل طاقاته النفسية والجسدية والفنية من أجل كسب المعارك أو الموت تحت ظلال السيوف[٢]، فمن أقواله ﷺ في حث أصحابه على الجهاد: «والذي نفسي بيده لولا أن رجالاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني، ولا أجد ما أحملهم عليه، ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله، والذي نفسي بيده لوددت أني أقتلُ في سبيل الله، ثم أُحيا، ثم أُقتل، ثم أُحيا، ثم أُقتل، ثم أُحيا، ثم أُقتل»[٣].

وقوله ﷺ: «ما أحدٌ يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيدُ، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عَشْرَ مرات، لما يَرَى من الكرامة»[٤].

٢ ـ الأسلوب العملي:

فقد سعى النبي ﷺ إلى اعتماد كل طاقات الأمة القادرة على البذل والعطاء، رجالاً ونساءً وصبيانًا وشبابًا وشيوخًا، وإلى التمرس على كل مهارة في القتال طعنًا بالرمح وضربًا بالسيف، ورميًا بالنَّبل، ومناورة على ظهور الخيل، وكان ﷺ يمزج خَطَّيْ التربية العسكرية المتوازنين: التوجه والتدريب والأمل في النصر أو الجنة وتقديم الجهد في ساحات القتال، ويحض المسلمين على إتقان ما تعلموا من فنون الرماية، قال رسول الله ﷺ: «من عَلِم الرمي ثم تركه، فليس منا، أو قد عصى»[٥]، فهي دعوة إلى عموم الأمة وحتى من دخلوا في سن

---

(١) انظر: القتال والجهاد، محمد خير هيكل (١/ ٤٦٣، ٤٦٤).

(٢) انظر: دراسة في السيرة (ص ١٦١).

(٣) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب تمني الشهادة، رقم (٢٧٩٧).

(٤) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب تمني المجاهد أن يرجع إلى الدنيا، رقم (٢٨١٧).

(٥) مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه، رقم (١٩١٩).

الشيخوخة للتدريب على إصابة الهدف ومهارة اليد، ونشاط الحركة، إن الإسلام يهتم بطاقات الأمة جميعها ويوجهها نحو المعالي وعلو الهمة.

وكان النبي ﷺ يهتم بالإعداد على حسب كل ظرف وحال ويحث على كل وسيلة يستطيعها المسلمون، وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إن القوة الرَّميُ، ألا إن القوة الرَّمي، ألا إن القوة الرَّمي»[١].

ثانيًا: من أهداف الجهاد في سبيل الله تعالى:

١ - حماية حرية العقيدة:

قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٣٩، ٤٠].

٢ - حماية الشعائر والعبادات:

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٣٨ - ٤١].

٣ - دفع الفساد عن الأرض:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠ - ٢٥٢].

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: الآية ٢٥١] «أي: لولاه يدفع عن قوم بآخرين كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داود لهلكوا»[٢].

---

(١) مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه رقم (١٩١٧).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٢٦٢)، أو ص (٤٤٧) من ط/دار الشعب.

٤ ـ الابتلاء والتربية والإصلاح:

قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾ [محمَّد: ٤ ـ ٦].

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمَّد: ٤] أي: ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء ليختبركم ويبلو أخباركم[1]، كما ذكر حكمته في شرعية الجهاد في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٤٢].

٥ ـ إرهاب الكفار وإخزاؤهم وإذلالهم وتوهين كيدهم:

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التوبة: ١٥].

وقال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ١٧، ١٨].

٦ ـ كشف المنافقين:

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

قال ابن كثير: «أي لا بد أن يعقد سببًا من المحنة، يظهر فيه وليه، ويفتضح فيه عدوه، يُعرَف به المؤمن الصابر والمنافق الفاجر، يعني بذلك يوم أحد الذي امتحَن به المؤمنين، فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وطاعتهم لله ورسوله ﷺ، وهتك به ستر المنافقين، فظهر مخالفتهم ونكولهم عن الجهاد وخيانتهم لله ولرسوله ﷺ»[2].

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ١٥٤).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣٧١) أو (٢/ ١٥٠) من ط/ دار الشعب.

٧ ـ إقامة حكم الله ونظام الإسلام في الأرض:

إن إقامة حكم الله في الأرض هدف من أهداف الجهاد، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النِّساء: ١٠٥]

٨ ـ دفع عدوان الكافرين:

إن من أهداف الجهاد في الإسلام دفع عدوان الكافرين، وهذا الجهاد أنواع منها:

* **أن يعتدي الكفار على فئة مؤمنة مستضعفة في أرض الكفار:** لا سيما إذا لم تستطع أن تنتقل إلى بلاد تأمن فيها على دينها، فإن الواجب على الدولة الإسلامية أن تعد العدة لمجاهدة الكفار الذين اعتدوا على تلك الطائفة حتى يخلصوها من الظلم والاعتداء الواقع عليها(١).

قال تعالى: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النِّساء: ٧٤، ٧٥].

* **أن يعتدي الكفار على ديار المسلمين:** قال تعالى:

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البَقَرَة: ١٩٠ ـ ١٩٢].

فقد نص الفقهاء على أنه إذا اعتدى الكفار على ديار المسلمين يتعين الجهاد للدفاع عن الديار، لأن العدو إذا احتلها سام المسلمين عذابًا، ونفذ فيها أحكام الكفر، وأجبر أهلها على الخضوع له فتصبح دار كفر بعد أن كانت دار إسلام.

قال بعض علماء الحنفية: «وحاصله أن كل موضع خيف هجوم العدو منه فُرض على الإمام أو على أهل ذلك الموضع حفظه، وإن لم يقدروا فرض على الأقرب إليهم إعانتهم إلى حصول الكفاية بمقاومة العدو»(٢).

* **أن ينشر العدو الظلم بين رعاياه ـ ولو كانوا كفارًا:** لأن الله سبحانه حرم على عباده الظلم. والعدلُ في الأرض واجب لكل الناس، وإذا لم يدفع المسلمون الظلم عن المظلومين

---

(١) انظر: الجهاد في سبيل الله، د. عبد الله القادري (٢/ ١٦٢).

(٢) انظر: حاشية ابن عابدين (٤/ ١٢٤).

أثموا لأنهم مأمورون بالجهاد في الأرض لإحقاق الحق وإبطال الباطل ونشر العدل والقضاء على الظلم، ولافلاح لهم إلا بذلك.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[المائدة: ٨].

* **الوقوف ضد الدعاة إلى الله ومنعهم من تبليغ دعوة الله:** إن المسلمين مفروض عليهم من قبل المولى ﷻ أن يبلغوا رسالات الله للناس كافة، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عِمرَان: ١٠٤].

وأعداء الله يصدون أولياءه عن تبليغ عباده دعوته ولا يتركون لهم سبيلاً إلى الناس، كما لا يأذنون للدعاة أن يُسمعوا دعوة الله للناس، ويضعون العراقيل، والعوائق، والحواجز بين الدعوة ودعاتها وبين الناس، ولذلك أوجب الله ﷻ على عباده المؤمنين قتال كل من يصد عن سبيل الله تعالى[1].

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ① وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ② ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَـٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَـٰلَهُمْ ③ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [محمد: ١ ـ ٤].

ثالثًا: أهم السرايا والبعوث التي سبقت غزوة بدر الكبرى:

بمجرد الاستقرار الذي حصل للمسلمين بقيادة الرسول ﷺ في المدينة، وقيام الجماعة المؤمنة في المجتمع الجديد كان لابد أن يتنبه المسلمون وقيادتهم إلى الوضع حولهم وما ينتظرهم من جهة أعدائهم أعداء الدعوة، وكان لابد أن تنطلق الدعوة الإسلامية إلى غايتها التي أرسل الله محمدًا ﷺ بها، وتحمل هو وأصحابه في سبيلها المشاق الكثيرة.

إن موقف قريش في مكة من أولى الأمور التي يجب أن تعالجها قيادة المدينة، لأن أهل مكة لن يرضوا بأن يقوم للإسلام كيان ولو كان في المدينة، لأن ذلك يهدد كيانهم، ويقوض بنيانهم، فهم يعلمون أن قيام الإسلام معناه انتهاء الجاهلية وعادات الآباء والأجداد، فلا بد من الوقوف في وجهه.

وقد بذلت مكة وأهلها المحاولات لعدم وصول النبي ﷺ إلى المدينة، واتخذت مواقف عدائية لضرب الإسلام والقضاء على المسلمين[2]، واستمر هذا العداء بعد هجرة النبي ﷺ،

---

(١) انظر: فقه التمكين في القرآن الكريم للصَّلاَّبي (ص ٤٨٨).

(٢) انظر: مرويات غزوة بدر، أحمد باوزير (ص ٧٩).

فمن أهم المواقف الدالة على ذلك ما رواه البخاري عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ حدَّث، عن سعد بن معاذ أنه قال: كان صديقًا لأمية بن خلف، وكان أُمية إذا مرَّ بالمدينة نزل على سعد، وكان سعد إذا مرّ بمكة نزل على أمية فلما قَدِم رسول الله ﷺ المدينة انطلق سعد معتمرًا فنزل على أمية بمكة، فقال لأُمَية: انظر لي ساعة خلوة لعلي أن أطوف بالبيت فخرج به قريبًا من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل فقال: يا أبا صفوان، من هذا معك؟ فقال: هذا سعد، فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمنًا، وقد أويتم الصُّبَاة[(١)]. وزعمتم أنكم تنصرونهم، وتعينونهم، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجَعْتَ إِلى أهلك سالمًا، فقال له سعد، ورفع صوته عليه: أما والله لئن منعتني هذا لأمنعنَّك ما هو أشدُّ عليك منه، طريقَك على المدينة...[(٢)]، وفي رواية عند البيهقي: «والله لئن منعتني أن أطوف بالبيت لأقطعن عليك متجرك إِلى الشام»[(٣)]. تدل هذه الواقعة على أن أبا جهل يعتبر سعد بن معاذ من أهل الحرب بالنسبة إِلى قريش، ولولا أنه دخل مكة في أمان زعيم من زعمائها لأهدر دمه، وهذا تصرف جديد من رؤساء مكة حيال أهل المدينة، لم يكن قبل الدولة الإِسلامية فيها، فلم يكن أحد من أهل المدينة يحتاج إِلى عقد أمان لكي يسمح له بالدخول إِلى مكة! بل إن قريشًا كانت تكره أن تفكر في حدوث حالة حرب بينها وبين أهل المدينة قبل هذا الوضع الجديد، وقالوا في هذا الصدد، يخاطبون أهل المدينة ما نصه: «والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم»[(٤)]، كما تدل هذه القصة على أن قوافل تجارة قريش في طريقها إِلى الشام كانت في أمان إِلى حدوث هذه الواقعة، لا تتعرض لها الدولة الإِسلامية بمكروه. أي: كانت الدولة الإِسلامية إِلى هذا الوقت لم تعامل أهل مكة معاملة أهل الحرب، فلم تضرب عليهم الحصار الاقتصادي، ولم تصادر لهم أية قافلة، أو تقصدها بسوء! ومعنى هذا أن الأيدي الممسكة بزمام الأمور في مكة هي التي بادرت وأعلنت الحرب على الدولة الإِسلامية في المدينة، واعتبرت المسلمين أهل حرب لا يسمح لهم بدخول مكة إِلا بصفة مستأمنين[(٥)].

ودليل آخر على مبادرة رؤساء مكة في إِعلان الحرب على الدولة الإِسلامية في المدينة ما جاء في سنن أبي داود: عن عبد الرحمٰن بن كعب بن مالك، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أن كفار قريش كتبوا إِلى ابن أُبيٍّ، ومن كان يعبد معه الأوثان من الأوس والخزرج، ورسولُ الله ﷺ يومئذٍ بالمدينة، قبل وقعة بدر: إِنكم آويتم صاحبنا، وإِنا نقسم بالله لتُقاتلَنَّه أو لتُخرجَنَّه أو لَنَسيرن إليكم بأجْمعنا، حتى نقتل مقاتلتكم، ونستبيح نساءكم، فلما بلغ عبد الله بن

---

(١) جمع صابىء: أي الخارج عن دينه. وكان المشركون يسمون من أسلم صابئًا.

(٢) البخاري: كتاب المغازي، باب ذكر النبي ﷺ من يُقتل ببدر، رقم (٣٩٥٠).

(٣) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٢٥).

(٤) انظر: سيرة ابن هشام (الروض الأنف ٢/ ١٩٢).

(٥) انظر: الجهاد والقتال (١/ ٤٧٦).

أبي، ومن كان معه من عبدة الأوثان، اجتمعوا لقتال النبي ﷺ، فلما بلغ ذلك النبيَّ ﷺ لَقِيَهم، فقال: «لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم».

فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا[(١)].

وهنا تظهر عظمة النبوة وعظمة القائد المربي ﷺ، حيث قضى على هذه الفتنة في مهدها، وضرب على وتر العزة القبلية، فقد كان ﷺ يدرك أغوار النفس البشرية التي يتعامل معها، ولذلك كان خطابه مؤثرًا في نفوس مشركي يثرب، ونحن بحاجة إلى هذا الفقه العظيم في تفتيت محاولات المشركين للقضاء على الصف الإسلامي وزعزعة بنيانه الداخلي، بعد أن بدأت قريش بإعلان حالة الحرب بينها وبين دولة الإسلام بالمدينة، ونزل الإذن من الله تعالى بالقتال صار من الطبيعي أن تتعامل دولة المدينة مع قريش حسب ما تقتضيه حالة الحرب هذه، فقد اتجه نشاط الرسول ﷺ من أجل توطيد مكانة هذه الدولة، والرد على قريش في إعلانها حالة الحرب على المدينة، فاتجه نشاطه نحو إرسال السرايا، والخروج في الغزوات[(٢)]، فكانت تلك السرايا والغزوات التي سبقت بدر الكبرى ومن أهمها:

١ ـ غزوة الأبواء:

أولى الغزوات التي غزاها النبي ﷺ غزوة الأبْواء[(٣)]، وتعرف بغزوة وَدّان[(٤)] أيضًا، وهما موقعان متجاوران بينهما ستة أميال أو ثمانية ولم يقع قتال في هذه الغزوة بل تمت موادعة بني ضَمرة (من كنانة) وكانت هذه الغزوة في (صفر سنة اثنتين من الهجرة)، وكان عدد المسلمين مائتين بين راكب وراجل[(٥)].

٢ ـ سرية عُبَيدة بن الحارث:

وهي أول راية عقدها رسول الله ﷺ[(٦)] وكان عدد السرية ستين من المهاجرين، وكانت قوة الأعداء من قريش أكثر من مائتي راكب وراجل، وكان قائد المشركين أبا سفيان بن حرب، وحصلت مناوشات بين الطرفين على ماء بوادي رابغ، رَمى فيها سعد بن أبي وقاص بسهم، فكان أول سهم رُمي به في الإسلام، وكانت بعد رجوعه من الأبواء[(٧)].

---

(١) سنن أبي داود (٣/ ٢١٣)، ورقمه (٣٠٠٤)، صحيح سنن أبي داود للألباني، وقال: صحيح الإسناد.

(٢) انظر: الجهاد والقتال (١/ ٤٧٧).

(٣) قيل: سميت بذلك لما فيها من الوباء.

(٤) وَدَّان: قرية جامعة قريبة من الأبواء.

(٥) انظر: جيش النبي ﷺ، لمحمود شيت خطاب (ص ٥٤).

(٦) انظر: طبقات ابن سعد (٢/ ٧).

(٧) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرسول، د. محمد بكر آل عباد (١/ ٤٠).

٣ ـ سرية حمزة بن عبد المطلب:

قال ابن إسحاق: وبعث النبي ﷺ في مُقامه ذلك ـ أي لما وصل إلى المدينة بعد غزوة الأبواء ـ حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر[(١)] من ناحية العيص في ثلاثين راكبًا من المهاجرين، فلقي أبا جهل بن هشام بذلك الساحل في ثلاثمائة راكب من أهل مكة، فحجز بين الفريقين مَجْدِيُّ بن عمر الجُهَني، وكان موادعًا للفريقين جميعًا، فانصرف القوم عن بعض، ولم يكن بينهم قتال[(٢)].

٤ ـ غزوة بُوَاط[(٣)]:

وكانت غزوة رسول الله ﷺ بُواط في شهر ربيع الأول في السنة الثانية من مهاجره، وخرج في مائتين من أصحابه، وكان مقصده أن يعترض عيرًا لقريش كان فيها أمية بن خلف في مائة رجل، وألفين وخمسمائة بعير، فلم يلق النبي ﷺ كيدًا فرجع إلى المدينة.

٥ ـ غزوة العُشَيْرَة[(٤)]:

وفيها غزا ﷺ قريشًا، واستعمل على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد، وسميت هذه الغزوة بغزوة العُشيْرَة، فأقام بها جُمادَى الأولى وليالي من جمادى الآخرة، وادع فيها بني مُدْلِج وحلفاءهم من بني ضمرة، ثم رجع إلى المدينة، ولم يلق كيدًا، وذلك أن العير التي خرجت لها قد مضت قبل ذلك بأيام ذاهبة إلى الشام[(٥)]، فساحلت على البحر، وبلغ قريشًا خبرُها فخرجوا يمنعونها فلقوا رسول الله ﷺ ووقعت غزوة بدر الكبرى[(٦)].

٦ ـ سرية سعد بن أبي وقاص:

وبعد غزوة العُشَيْرَة بعث النبي ﷺ سعد بن أبي وقاص في سرية قوامها ثمانية رَهْط من المهاجرين، فخرج حتى بلغ الخَرَّار[(٧)] من أرض الحجاز ثم رجع ولم يلق كيدًا[(٨)].

---

(١) سيف البحر: ساحله.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (ق ١/ ٥٩٥).

(٣) بواط: هو جبل من جبال جهينة بناحية رضوى بقرب ينبع.

(٤) العُشيرة: موضع بين مكة والمدينة من ناحية ينبع على ساحل البحر الأحمر (مراصد الاطلاع ٢/ ٩٤٣)، ووردت لها هذه الأسماء بصحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ الباب الأول: (العُشَيْرَة، العُسَيْرَة، العُشَيْر)، وسماها ابن الجوزي: (ذات العشير، وذات العشيرة).

(٥) انظر: طبقات ابن سعد (٢/ ١٠).

(٦) المصدر نفسه (٢/ ١١).

(٧) علم لموضع بالحجاز قرب الجحفة (مراصد الاطلاع ١/ ٤٥٥).

(٨) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٦٠٠).

٧ ـ غزوة بدر الأولى:

سببها: أن كُرْز بن جابر الفهري، قد أغار على سَرْح[١] المدينة ونهب بعض الإبل والمواشي، فخرج رسول الله ﷺ في طلبه، حتى بلغ واديًا يُقال له «سَفْوان» من ناحية بدر، وفاته كرز بن جابر، فلم يدركه فرجع رسول الله ﷺ إلى المدينة[٢].

٨ ـ سرية عبد الله بن جحش الأسدي إلى نخلة[٣]:

وأرسل النبي ﷺ عبد الله بن جحش في ثمانية رَهْط من المهاجرين إلى نَخْلة جنوب مكة في آخر يوم من رجب، للاستطلاع والتعرف على أخبار قريش، لكنهم تعرضوا لقافلة تجارية لقريش فظفروا بها، وقتلوا قائدها عمرو بن الحضرمي وأسروا اثنين من رجالها وهم: عثمان بن عبد الله والحكم بن كَيْسان، وعادوا بهما إلى المدينة، وقد توقف النبي ﷺ في هذه الغنائم حتى نزل عليه قوله تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

فلما نزل القرآن الكريم قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين، وفي سرية عبد الله هذه غنم المسلمون أول غنيمة، وعمرو بن الحضرمي أول قتيل قتله المسلمون، وعثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان أول من أسر المسلمون[٤].

رابعًا: فوائد ودروس وعبر:

١ ـ متى شرع الجهاد؟

ذهب الشيخ الدكتور محمد أبو شهبة إلى أن تشريع الجهاد كان في أوائل السنة الثانية للهجرة، وعلل ذلك بسبب انشغال المسلمين في السنة الأولى بتنظيم أحوالهم الدينية والدنيوية، كبنائهم المسجد النبوي، وأمور معايشهم، وطرق اكتسابهم، وتنظيم أحوالهم السياسية، كعقد التآخي بينهم، وموادعتهم اليهود المساكنين لهم في المدينة، كي يأمنوا شرورهم[٥]، وذهب

---

(١) السرح: الإبل والمواشي التي تسرح للرعي بالغداة.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٦٠١).

(٣) نخلة اليمانية: واد عسكرت به هوازن يوم حنين.

(٤) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٤٣).

(٥) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٧٥، ٧٦).

الأستاذ صالح الشامي إلى أن الإذن بالجهاد كان في أواخر السنة الأولى للهجرة[١].

٢ ـ الفرق بين السرية والغزوة:

يطلق كُتّاب السير في الغالب على كل مجموعة من المسلمين خرج بها النبي ﷺ ليلقى عدوه (غزوة)، سواء حدث فيها قتال أو لم يحدث، وسواء كان عددها كبيرًا أو صغيرًا، ويطلق على كل مجموعة من المسلمين يرسلها النبي ﷺ لاعتراض عدو كلمة: (سرية) أو (بعث)، وقد يحدث فيها قتال وقد لا يحدث، وقد تكون لرصد أخبار عدوه أو غيره، وغالبًا ما يكون عدد الذين يخرجون في السرايا قليلاً، لأن مهمتهم محددة في مناوشة العدو وإخافته وإرباكه، وقد قاد رسول الله ﷺ سبعًا وعشرين غزوة، وأرسل ما يقدر بثمان وثلاثين سرية وبعثًا، وقد خطط لها في فترة وجيزة في عمر الأمم بلغت عشر سنوات من الزمن[٢].

٣ ـ تعداد سكان المدينة وعلاقته بالسرايا:

أمر النبي ﷺ بإجراء تعداد سكاني في السنة الأولى من الهجرة، وبعد المؤاخاة مباشرة، وكان الإحصاد للمسلمين فقط أو حسب نص أمر رسول الله ﷺ حينما قال: «اكتبوا لي من تلفظ بالإسلام من الناس» فبلغ تعداد المحاربين منهم فقط (١٥٠٠) ألفًا وخمسمائة رجل[٣]، فأطلق المسلمون بعد إجراء هذا الإحصاء تساؤل تعجب واستغراب: «نخاف ونحن ألف وخمسمائة!» لأنهم كانوا قبل لا ينامون إلا ومعهم السلاح خوفًا على أنفسهم، وكان رسول الله ﷺ يمنع خروجهم ليلاً فرادى حماية لهم من الغدر[٤]، وبعد هذا التعداد مباشرة بدأت السرايا والغزوات وهذا الإجراء الإحصائي يدخل ضمن الإجراءات التنظيمية في تطوير الدولة الناشئة[٥].

٤ ـ حراسة الصحابة للنبي ﷺ الشخصية:

كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ يحرسون النبي ﷺ حراسة شخصية، فعن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: أرق النبي ﷺ ذاتَ ليلة، فقال: «ليت رجلاً صالحًا من أصحابي، يحرسُني الليلة» إذ سمعنا صوت السلاح، قال: «من هذا؟» قال: سعدٌ يا رسول الله، جئت أَحْرُسُك فنام النبي ﷺ فنام حتى سمعنا غَطِيطَه[٦].

---

(١) انظر: معين السيرة (ص ١٧٥).

(٢) في ظلال السيرة، غزوة بدر، لأبي فارس (ص ١٢).

(٣) انظر: الوثائق السياسية، حميد الله (ص ٦٥).

(٤) انظر: الروض الأنف (٥/ ٤٣).

(٥) انظر: دراسات في عهد النبوة للشجاع (ص ١٦٣).

(٦) البخاري: كتاب التمني: باب قوله ﷺ: «ليت كذا وكذا» (٧٢٣١).

وكان ذلك قبل غزوة بدر الكبرى(١)، وفي حديث عائشة مشروعية الاحتراس من العدو، والأخذ بالحزم، وترك الإهمال في موضع الحاجة إلى الاحتياط، وأن على الناس أن يحرسوا سلطانهم خشية القتل، وفيه الثناء على من تبرع بالخير وتسميته، وإنما عانى النبي ﷺ ذلك مع قوة توكله للاستنان به في ذلك(٢).

٥ ـ نص وثيقة المعاهدة مع بني ضمرة والتعليق عليها:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله لبني ضَمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وأنَّ لهم النصر على من رامهم، إلا أن يُحاربوا في دين الله ما بَلَّ بحرٌ صوفةً(٣)، وأن النبي ﷺ إذا دعاهم لنُصرةٍ أجابوه، عليهم بذلك ذمة الله وذمة رسوله، ولهم النصر على من برَّ منهم واتقى»(٤).

انتهز النبي ﷺ في غزوة الأبواء فرصة ذهبية، فعقد حلفًا عسكريًا مع شيخ بني ضمرة، فقد كان موقع بلاده ذا قيمة عسكرية لا تقدر بثمن في الصراع بين الدولة الإسلامية الناشئة وقريش، ولذلك عمل رسول الله ﷺ على ضمان حيدتهم، في حالة وقوع صدام مسلح بين المدينة وأهل مكة، وكانت خطته ﷺ حتى وقعة بدر أن يزعج قوافل قريش بإرسال مجموعات صغيرة من المهاجرين، وخاصة أن هذه القوافل كانت غير مصحوبة بجيش يحميها، وهو أمر لم تفكر فيه قريش حتى تلك اللحظة(٥).

كان قرب بني ضمرة وحلفائهم من المدينة التي كانت سوقهم ومصدر رزقهم، قد وضعهم في موقف لا يسمح لهم بأي مسلك غير موادعة الدولة الإسلامية الناشئة، وهو حلف عدم اعتداء وَفْق المصطلح الحديث(٦).

وقد دلت هذه الموادعة على أن مقتضيات السياسة الشرعية قد تدفع المسلمين إلى التحالف العسكري، أو الاقتصادي، أو التجاري، مع أي من الكتل القائمة، وأن التحالف السياسي له أصل في الشريعة وضرورة يوجبها استهداف رفع الضرر الحاصل أو المرتقب(٧)، وأن التحالف مبني على قاعدة رفع الضرر والمصلحة المشتركة، وأن تكون لأصل الحلف غاية شرعية معلومة، وأن يكون للمسلمين في الحلف قرار ورأي، أما إذا كانوا أتباعًا ومنفذين كما

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٦/ ٢٣٠).

(٢) انظر: ولاية الشرطة في الإسلام، د. عمر محمد الحميداني (ص ٦٣).

(٣) كناية عن التأبيد والاستمرار.

(٤) الوثائق السياسية، محمد حميد الله (ص ٢٢٠، رقم ١٥٩).

(٥) انظر: نشأة الدولة الإسلامية، د. عون الشريف (ص ٤٣).

(٦) انظر: الفقه السياسي، خالد سليمان الفهداوي (ص ١١٩).

(٧) المصدر نفسه (ص ١٢٤).

في الأحلاف الحديثة، فهذا لا ينطبق عليه الأصل الشرعي. وعلى قيادة الأمة أن تستوعب هدي النبي ﷺ في حركته السياسية، وأن تفهم القاعدة الشرعية التي تقول: «لا ضرر ولا ضرار»[(١)].

يقول الشيخ مصطفى الزرقا في معرض الحديث عن هذه القاعدة ما نصه: «وهذه القاعدة من أركان الشريعة وتشهد لها نصوص من الكتاب والسنة، ويشمل الضرر المنهيُّ عنه ما كان ضررًا عامًا أو خاصًا، ويشمل ذلك دفعه قبل الوقوع بطرق الوقاية الممكنة، ودفعه بعد الوقوع بما يمكن من التدابير التي تزيل آثاره وتمنع تكراره، كما يدل على وجوب اختيار أهون الشرَّين لدفع أعظمها، لأن في ذلك تخفيفًا للضرر عندما لا يمكن منعه بتاتًا[(٢)].

إن هذه الموادعة توضح جواز عقد الدولة الإسلامية معاهدة دفاعية بينها وبين دولة أخرى، إذا اقتضت ذلك مصلحة المسلمين، ولم يترتب أي ضرر على مثل هذه المعاهدة، ويجب على الدولة الإسلامية في هذه الحال نصرة الدولة الحليفة إذا دعيت إلى هذه النصرة ضد الكفار المعتدين، كما يجوز للدولة الإسلامية أن تطلب من الدولة الحليفة إمدادها بالسلاح، والرجال، ليقاتلوا تحت راية الدولة الإسلامية، ضد الأعداء من الكفار[(٣)].

وقد شرط النبي ﷺ على بني ضَمْرة ألا يحاربوا في دين الله، حتى يكون لهم النصر على من اعتدى عليهم، أو حاول الاعتداء. وفي هذا إبعاد للعقبات التي يمكن أن تقف في طريق الدعوة، فقد أوجبت هذه المعاهدة على بني ضمرة ألا يحاربوا هذا الدين أو يقفوا في طريقه[(٤)].

وتعتبر هذه المعاهدة كسبًا سياسيًا وعسكريًا للمسلمين لا يستهان به[(٥)].

٦ ـ (وإني لأول رجل رمى بسهم في سبيل الله)[(٦)]:

كانت سرية عُبَيدة بن الحارث ـ رضي الله عنه ـ أول سرية في تاريخ السرايا يلتقي فيه المسلمون مع المشركين في مواجهة عسكرية، وقد اتخذ القتال بين الطرفين طابع المناوشة بالسهام، وكان سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ أول العرب رمى بسهم في سبيل الله[(٧)]، في تلك المعركة التي

---

(١) هذه القاعدة أصلها حديث نبوي رواه ابن ماجه (٢/ ٣٩، رقم ١٨٩٦)، وهو صحيح، وذكره الألباني في صحيح سنن ابن ماجه له، وقال: صحيح برقمي [١٩١٠ (٢٣٧٠)، ١٩١١ (٢٣٧١)].

(٢) انظر: المدخل الفقهي، الشيخ الزرقا (ص ٩٧٢).

(٣) انظر: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، د. محمد خير هيكل (١/ ٤٧٩).

(٤) انظر: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين (ص ٥٣٠).

(٥) انظر: الدعوة الإسلامية، د. عبد الغفار عزيز (ص ٢٩٦).

(٦) انظر: سنن الترمذي (٢/ ٢٧٧).

(٧) انظر: السرايا والبعوث النبوية، د. بريكك العمري (ص ٩١).

لم تستمر طويلاً، إذ قرر الفريقان الانسحاب من أرضها، وقد كان انسحاب المسلمين قويًا ومنظمًا، وكان بطل هذا الانسحاب سعد بن أبي وقاص - ﷺ - فقد كان له الدور الأكبر في تثبيط وإحباط استعدادات العدو، لشن أي هجوم مضاد، وذلك بوابل من السهام المزعجة التي قذفها نحوه، والتي كونت ساترًا دفاعيًا، مهد لانسحاب سليم منظم بالنسبة للمسلمين، وقد فر عتبة بن غَزْوان، والمقداد بن الأسود[١] -ﷺ- يومئذٍ إلى المسلمين وكانا قد أسلما قبل ذلك، وفي هذه السرية حقق سعد بن أبي وقاص - ﷺ - سبقًا عسكريًا إسلاميًا يسجل في سجله الحافل بالأعمال العظيمة لنصرة دين الله تعالى، كما أكدت هذه السرية استمرار سياسة رسول الله ﷺ التعبوية الخاصة بحشد المهاجرين فقط في الغزوات والسرايا الأولى حتى بدر تنفيذًا لاتفاقية العقبة الثانية[٢].

٧ ـ نص وثيقة الموادعة مع جهينة والتعليق عليها:

«إنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم، وإن لهم النصر على من ظلمهم أو حاربهم إلا في الدين والأهل. ولأهل باديتهم من برَّ منهم واتقى ما لحاضرتهم»[٣].

ويظهر أثر هذه المواعدة عندما تدخل مَجْدِيُّ بن عمرو الجُهَنِيّ في التوسط بين سرية حمزة بن عبد المطلب والقافلة القرشية التي كان يقودها أبو جهل بن هشام، ويحرسها ثلثمائة راكب من فرسان قريش[٤]، فقد التقوا ناحية العيص في منطقة نفوذ جهينة واصطفوا للقتال[٥]، وقبل أن يندلع القتال بين الفريقين تدخل مجدي بن عمرو زعيم من زعماء جهينة في وساطة سلام بينهم، واستطاع أن ينجح في مساعيه السلمية بين الطرفين، فقد كان مجدي وقومه حلفاء للفريقين جميعًا، فلم يعصوه، فرجع الفريقان إلى بلادهما فلم يكن بينهما قتال[٦].

يظهر من هذه المعاهدة أن عقد المعاهدات بين الدولة الإسلامية والقبائل المجاورة كان سابقًا على الأعمال العسكرية التي قامت بها، بدليل أن حركة السرايا الأولى الموجهة ضد قريش كان قد سبقها معاهدة سلام بين دولة الإسلام، وقبيلة جهينة المقيمة على ساحل البحر الأحمر، وقد توسطت لمنع القتال بين المسلمين وكفار مكة.

ومن فقه هذه المعاهدة جواز عقد معاهدة سلام بين دولة الإسلام ودولة أخرى، هي

---

(١) هو سيدنا المقداد بن عمرو البَهْرَاني الكندي، وقيل الحضرمي، وغلبت عليه الشهرة باسم المقداد بن الأسود (الإصابة: لابن حجر ٦/ ١٦٠ عند ترجمته برقم ٨٢٠١).

(٢) انظر: السرايا والبعوث النبوية، د. بريكك العمري (ص ٩٢).

(٣) انظر: مجموعة الوثائق السياسية، محمد حميد الله (ص ٦٢).

(٤) انظر: المواهب اللدنية (١/ ٧٥).

(٥) انظر: طبقات ابن سعد (٢/ ٦)، وانظر: السرايا والبعوث، (ص ٨٥).

(٦) انظر: السرايا والبعوث النبوية (ص ٨٦).

بدورها مرتبطة بمعاهدة سلام مع أعداء الدولة الإسلامية، بشرط أن لا تتجاوز تلك المعاهدة إلى الاتفاق على أن تنصر الدولة المعاهدة للمسلمين، تلك الدولة العدُو إذا ما اشتبكت مع المسلمين في قتال، ويجوز للدولة الإسلامية أن تترك قتال أعدائها بعد أن تستعد لذلك، استجابة لوساطة دولة أخرى إذا لم يترتب على ذلك ضرر للمسلمين[(١)].

كانت نتائج سرية حمزة - ﷺ - على المعسكر الوثني سيئة للغاية، حيث هزت كيان قريش، وبثت الرعب في نفوس رجالها، وفتحت أعينهم على الخطر المحدق بهم، والذي أصبح يهدد طريق تجارتهم، وقوتهم الاقتصادية[(٢)]، فقد قال أبو جهل حين قدم مكة وقد انصرف عن حمزة: يا معشر قريش، إن محمدًا قد نزل يثرب وأرسل طلائعه، وإنما يريد أن يصيب منكم شيئًا، فاحذروا أن تمروا طريقه، وأن تقاربوه فإنه كالأسد الضاري، إنه حنق[(٣)] عليكم نفيتموه نفي القردان[(٤)] على المناسم[(٥)]، والله إن له لسحرة، مارأيته قط ولا أحد من أصحابه إلا رأيت معهم الشياطين، وإنكم عرفتم عداوة ابني قيلة[(٦)] فهو عدو استعان بعدو[(٧)].

٨ - سرية عبد الله بن جحش وما فيها من دروس وعبر:

حققت سرية عبد الله بن جحش نتائج مهمة وفيها دروس وعبر وفوائد عظيمة منها:

أ - جاء في خبر هذه السرية أن النبي ﷺ كتب لأمير السرية كتابًا وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين: وهذا مثل لتطبيق مبدأ مهم من مبادىء الحرب، وهو إخفاء الخطط الحربية، ومنها خط السير حتى يكون الجيش في أمان من كيد الأعداء، فالمدينة كانت آنذاك تضم اليهود والوثنيين، ومن المتوقع أن يسارع هؤلاء إلى إخبار أهل مكة بخط سير تلك السرية الموجهة ضدهم، فلما سار أفراد السرية، وهم بأنفسهم لا يعلمون اتجاههم، أصبح النبي ﷺ آمنًا من انكشاف الهدف المقصود[(٨)].

وإن الباحث ليرى أثر التربية النبوية في هذه السرية المباركة، حيث سمعوا وأطاعوا جميعًا، وساروا إلى منطقة أعدائهم، وتجاوزوها حتى أصبحوا من ورائهم، وهذا شاهد على قوة إيمان الصحابة - رضي الله عنهم - واستهانتهم بأنفسهم في سبيل الله تعالى[(٩)].

---

(١) انظر: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية (١/ ٤٧٨، ٤٧٩).
(٢) انظر: السرايا والبعوث النبوية (ص ٨٦).
(٣) الحَنَق، مُحركة: الغيظ أو شدته.
(٤) القردان: جمع قراد، وهي دويبة تعض الإبل.
(٥) المناسم: بكسر السين طرف خف البعير والنعامة، والفيل والحافر، وقيل: هو للناقة كالظفر للإنسان.
(٦) كناية عن الأوس والخزرج، فقيلة أمهم وكانوا ينسبون إليها.
(٧) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٢١٨، ٢١٩).
(٨) انظر: التاريخ الإسلامي، مواقف وعبر (٤/ ٧١).
(٩) المصدر نفسه (٤/ ٧١).

ب ـ حاولت قريش أن تستغل ما وقع من قتل في الشهر الحرام:

من قِبَل أفراد السرية فشنُّوا حربًا إعلامية وهجومية مركزة، تتخللها دعايات مغرضة ضد المسلمين، استغلت فيها التعاليم الإبراهيمية، التي لا زالت بعض آثارها باقية في المجتمع الجاهلي، حتى ذلك الوقت من تحريم القتال في الأشهر الحرم، وغير ذلك فقد انتهزت قريش هذه الفرصة للتشهير بمحمد ﷺ وبالمسلمين وإظهارهم بمظهر المعتدي الذي لا يراعي الحرمات(١)، قالت قريش: «قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال»(٢).

ونجحت قريش في خطتها تلك بادىء الأمر حيث «كان لدعاياتها صدى كبير، وأثر ملموس حتى في المدينة نفسها، فقد كثر الجدل والنقاش بين المسلمين أنفسهم، وأنكروا على رجال السرية، محاربتهم في الشهر الحرام، واشتد الموقف ودخلت اليهود تريد إشعال الفتنة»(٣) وقالوا: إن الحرب واقعة لا محالة بين المسلمين وقريش، بل بينهم وبين العرب جميعًا جزاء ما انتهكوا من حرمة الشهر الحرام، وأخذوا يردّدون(٤): «عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبد الله، عمرو: عمرت الحرب، والحضرمي: حضرت الحرب، واقد: وقدت الحرب»(٥) وهذا الكلام من اليهود يعبر عن حقد دفين في نفوسهم على الإسلام والمسلمين(٦).

وعندما ظن أهل السرية أنهم قد هلكوا وسُقط في أيديهم جاء الرد الرباني المفحم قطعًا لألسنة المشركين الذين يتترسون بالحرمات، ويتخذونها ستارًا لجرائمهم، ففضح القرآن هؤلاء المجرمين، وأبطل احتجاجهم وأجاب على استنكارهم القتال في الشهر الحرام، فالصد عن سبيل الله، والكفر به أكبر من القتال في الشهر الحرام، والمسجد الحرام، وإخراج أهله منه أكبر من القتال في الشهر الحرام، وفتنة الرجل في دينه أكبر من القتل في الشهر الحرام. لقد فعلت قريش كل هذه الجرائم، وارتكبت هذه الكبائر، ولكنها تناستها أو استهانت بها، ولم تذكر إلا حرمة الشهر، واتخذتها وسيلة لإثارة حرب شعواء على الإسلام ودولته، لتأليب القبائل الوثنية عليها وتنفير الناس من الدخول في هذا الدين الذي يستحل الحرمات، ويستبيح المقدسات حتى أن رسول الله ﷺ قد لحقه الغم، ولام قائد السرية وأصحابه على ما فعلوا(٧)، فنزلت الآيات

---

(١) انظر: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، الشريف أحمد (ص ٤٤٥).

(٢) انظر: سنن البيهقي (٩/٥٩) نقلاً عن السرايا والبعوث النبوية (ص ١٠٠).

(٣) انظر: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول (ص ٤٤٥).

(٤) أي يرددون على سبيل التفاؤل ـ عليهم لعائن الله.

(٥) انظر: سيرة ابن هشام (ق ١/٦٠٣، ٦٠٤).

(٦) انظر: التاريخ الإسلامي (٤/٧٢).

(٧) انظر: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين (ص ٥٣٣).

البينات ترد وبقوة على دعايات قريش المغرضة موضحة أنه وإن كان الشهر الحرام لا يحل فيه القتال، ولكن لاحرمة عند الله لمن هتك الحرمات وصد عن سبيله[١].

جـ - حرص القائد على سلامة الجنود:

عندما تخلف سعد بن أبي وقاص، وعُتبة بن غَزْوان بسبب بحثهما عن بعير لهما قد أَضَلاَّه، وجاءت قريش تريد أن تفدي الأسيرين، فأبى رسول الله ﷺ وقال: «أخاف أن تكونوا قد أصبتم سعد بن مالك، وعتبة بن غزوان» فلم يُفْدِهِمَا حتى قدم سعد وعتبة، ففوديا، فأسلم الحكم بن كيسان[١]، وأقام عند رسول الله ﷺ، ورجع عثمان بن عبد الله بن المغيرة كافرًا[٢].

ونفهم من المنهاج النبوي ضرورة أن يهتم القائد بسلامة جنده، لأنهم هم الذين يقدمون أنفسهم في سبيل نصرة دين الله، وإقامة دولة الإسلام.

إن المدارس العسكرية الحديثة تقول: إن الجندي حين يُحس باهتمام القيادة به وسلامته وبأمنه، لا يتردد في أن يبذل غاية البذل، ويعطي أقصى العطاء[٢].

د - ظهور التربية الأمنية في الميدان:

كانت سرية عبد الله بن جحش قد حققت أهدافها، وظهرت قدرتها على التوغل في المناطق الخاضعة لنفوذ قريش مما أذهلها، وزاد دهشتها وذهولها تلك السرية التامة والدقة المتناهية التي تمت بها العملية، حتى إن جواسيس قريش لم تستطع رصدها ولا معرفة الوجهة التي قصدتها، وكان ذلك ما أراده رسول الله ﷺ وخطط له بابتكاره أسلوب الرسائل المكتوبة للمحافظة على الكتمان وحرمان العدو من الحصول على المعلومات التي تفيده عن حركات المسلمين «والكتمان أهم عامل من عوامل مبدإ (المباغتة) وهي أهم مبدإ من مبادىء الحرب»[٣].

وقد أثبتت هذه السرية بما لايدع مجالاً للشك بأن سرايا النبي ﷺ قوية تندفع للقيام بأصعب الأعباء والمهمات، وتتحلى بمزايا القتال، وقدرتها على إنجاز الواجبات بكل كفاءة واقتدار مما يدل على روحها المعنوية العالية.

وتظهر آثار التربية النبوية في الضبط العسكري الرفيع الذي تميز به قائد السرية وطاعته للأوامر النبوية العليا، دون تردد أو تخاذل، فما أن قرأ الكتاب حتى امتثل فورًا للأمر بحذافيره، معطيًا من نفسه القدوة الحسنة، وباثًا في نفوس جنوده الحماس، وهو يقول لهم:

---

(١) انظر: السرايا والبعوث النبوية (ص ١٠٠).

(٢) انظر: غزوة بدر الكبرى، د. محمد أبو فارس (ص ٢٣).

(٣) انظر: الرسول القائد، خطاب (ص ٩٤).

«فمن كان منكم يريد الشهادة، ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماض لأمر رسول الله ﷺ»[١].

٩ ـ من أهداف السرايا:

عندما ندرس حركة السرايا والغزوات، التي قادها رسول الله ﷺ بدقة وعمق وتحليل، نستطيع أن نتلمس كثيرًا من الأهداف، وندرك بعض ما توحي به من دروس وعبر وفوائد، فإذا تأملنا في حركة السرايا التي سُيرت قبل بدر نجد أن أفرادها كلهم من المهاجرين، ليس فيهم واحد من الأنصار، يقول ابن سعد رحمه الله: «والمجتمَع عليه أنهم كانوا جميعًا من المهاجرين» ولم يبعث رسول الله ﷺ أحدًا من الأنصار مبعثًا حتى غزا بهم بدرًا[٢]، وقد كان هذا أمرًا مدروسًا له أهدافه ومنها إحياء قضية المهاجرين في أنفسهم أولاً، وإحياؤها على المستوى الخارجي، وإنهاك الاقتصاد القرشي ومحاصرته، واستعادة بعض الحقوق المسلوبة، وإضعاف قريش عسكريًا، وتدريب الصحابة على إتقان فنون القتال، ورصد تحركات قريش، وإرهاب العدو الداخلي في المدينة وما حولها، واختبار قوة العدو[٣]، وقد حققت تلك السرايا أهدافها والتي من أهمها:

أ ـ بسط هيبة الدولة في الداخل والخارج:

فقد استطاعت تلك السرايا والغزوات أن تلفت أنظار أعداء الدعوة والدولة الإسلامية إلى قوة المسلمين وقدرتهم على ضرب أية حركة مناوئة سواء في الداخل أو الخارج حتى لا يُحدِّث أحد نفسه بمهاجمة الدولة الإسلامية التي لا يتوقف جيشها ليل نهار، مما أرهب الأفاعي اليهودية، والقبائل الوثنية المحيطة بالمدينة، وجعل الجميع يعمل ألف حساب قبل أن تحدثه نفسه بغزو المدينة، أو مناصرة أحد من الأعداء عليها، والذي نلاحظه في حركة السرايا، الزيادة المستمرة في أعداد قوة تلك الغزوات والسرايا، ومجيئها متتابعة ليس بينها فاصل زمني على الإطلاق، فلا تكاد السرية أو الغزوة تعود، حتى تكون التي بعدها قد خرجت، لتحقيق الهدف نفسه، وهو ضرب مصالح قريش الاقتصادية، وقطع طرق تجارتها، وخصوصًا إلى بلاد الشام مما كلفها زيادة عدد حراس قوافلها، وارتفاع قيمة بضائعها عدا الرعب والخوف الذي يشعر به رجال القوافل القرشية وأصحاب الأموال في مكة على حد سواء[٤].

ب ـ كسب بعض القبائل وتحجيم دور الأعراب:

فقد وادع رسول الله ﷺ قبيلة جُهَيْنة وحالفها، وكذلك بعض القبائل الضاربة في تلك

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (ق ١/٦٠٢) من رواية ابن إسحاق عن عروة.

(٢) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/٦).

(٣) انظر: غزوة بدر الكبرى لأبي فارس (ص ١٤ـ ٢٤).

(٤) انظر: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين (ص ٥٣٢).

المنطقة من أجل تحييدها في الصراع الدائر بين مكة والمدينة، والعمل على كسبها في هذا الصراع وذلك: «لأن الأصل أن هذه القبائل تميل إلى قريش، وتتعاون معها، إذ بينهما مُحالفات تاريخية سماها القرآن الكريم بالإيلاف[١]، سعت قريش من خلالها لتأمين تجارتها مع الشام واليمن»[٢].

وبعد أن اتفقت بعض القبائل مع رسول الله ﷺ وعقدت معه معاهدات، أصبحت تشكل خطرًا على تجارة قريش، وصار المسلمون هم السادة في المنطقة[٣].

وقام النبي ﷺ بتحجيم دور الأعراب كي لا يكون لهم وجود في طرق التجارة، فقد كان الأعراب يُشكلون قوة تهديد للقوافل التجارية، وكان المار في مناطق نفوذهم لا يمر إلا بإتاوة تُدفع إليهم، وحينما قامت الدولة الإسلامية لم يجدوا شيئًا منها، فجربوا مهاجمتها، وتولى هذا كُرْز الفِهْري، ولكنه وجد رسول الله ﷺ يطارده إلى سَفْوان (بالقرب من بدر من مسافة تبعد عن المدينة حوالي ١٥٠ كيلو متراً) وقد سمى أهل السير هذه المطاردة (غزوة بدر الصغرى) وتُعد هذه الغزوة درسًا لكل الأعراب، فلم يحصل أن أعرابيًا سولت له نفسه مهاجمة المدينة بعد هذه المطاردة، ومن ثم لم تدفع الأمة الإسلامية إتاوات لقُطّاع الطرق، بل أجبرتهم على الانسحاب والدخول في اتفاقات مع المسلمين فأمنوا شرهم[٤].

جـ ـ علاقة هذه السرايا بحركة الفتوح الإسلامية:

استمرت حركة السرايا والبعوث وكانت بمثابة تمرينات عسكرية تعبوية، ومناورات حية لجند الإسلام، وكان هذا النشاط المتدفق على شكل موجات متعاقبة من جند الإسلام الأوائل، دلالة قاطعة على أن دولة الإسلام في المدينة، وبقيادة النبي القائد ﷺ كانت مثل خلية النحل، لا تهدأ ولا تَكَلّ، وإن الباحث ليلحظ في حركة السرايا والبعوث، والغزوات الكبرى، في زمن النبي ﷺ حرص الصحابة على المشاركة كقادة وجنود، فكان ﷺ يعدهم لتثبيت دعائم الدولة والاستعداد للفتوحات المرتقبة، والتي ما فتىء عليه الصلاة والسلام يبشر بها أصحابه بين الفينة والأخرى في أوقات الحرب والسلم والخوف والأمن.

إنه بنظرة فاحصة في قوّاد وجنود تلك السرايا والبعوث تطالعنا أسماء لمعت كثيرًا في تاريخ الفتح الإسلامي فيما بعد، مثل قائد فتوحات الشام «أمين الأمة» أبي عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص، صاحب القادسية، وفاتح المدائن، وخالد بن الوليد، سيف الله

---

(١) انظر: سورة قريش.

(٢) انظر: المجتمع المدني، د. أكرم ضياء العمري (ص ٢٧).

(٣) انظر: دراسات في السيرة (ص ١٩).

(٤) انظر: دراسات في عهد النبوة د. عبد الرحمٰن الشجاع (ص ١٣١).

المسلول، هازم الروم في اليرموك، وعمرو بن العاص، فاتح مصر وليبيا، وغيرهم ـ رضي الله عنهم ـ لقد التحق خالد وعمرو فيما بعد بحركة السرايا، وقادا بعضها بعد إسلامهما، لقد كانت السرايا والغزوات التي أشرف عليها الحبيب المصطفى ﷺ في حياته تدريبًا حيًّا نابضًا، بل يمكن اعتبارها دورات أركان للقادة الذين فتحوا مشارق الأرض ومغاربها فيما بعد.

المبحث الخامس

استمرارية البناء التربوي والعلمي

كان من أوائل ما نزل من القرآن الكريم في العهد المدني هو مقدمات سورة البقرة التي تحدثت عن صفات أهل الإيمان، وأهل الكفر، وأهل النفاق، ثم إشارة لأهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ وكان التركيز على بيان حقيقة اليهود لأنهم الذي تصدوا للدعوة الإسلامية من أول يوم دخلت فيه المدينة، وتتضمن سورة البقرة جانبًا طويلاً منها لشرح صفة يهود وطباعهم[1].

والملاحظ أن سورة البقرة وهي من أوائل ما نزل في العهد المدني كانت توجه الدعوة للناس أجمعين أن يدخلوا في دين الله، وأن يتوجهوا له بالعبادة قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢١، ٢٢].

وكانت الآيات القرآنية في العهد المدني تحذر المسلمين من الاتصاف بصفات المنافقين، وتوضح خطورة المنافقين على المجتمع الناشىء والدولة الجديدة، ولم تظهر حركة النفاق ضد المجتمع والدولة المسلمة إلا في العهد المدني، لأن المسلمين في مكة «لم يكونوا من القوة والنفوذ في حالة تستدعي وجود فئة من الناس ترهبهم أو ترجو خيرهم، فتتملقهم وتتزلف إليهم في الظاهر، وتتآمر عليهم وتكيد لهم وتمكر بهم في الخفاء، كما كان شأن المنافقين بوجه عام.. والآيات تتضمن أوصاف وأخبار ومواقف المنافقين، والحملات عليهم كثيرة جدًا، حتى لا تكاد تخلو سورة مدنية منها، وخاصة الطويلة والمتوسطة، وهذا يعني أن هذه الحركة ظلت طيلة العهد المدني تقريبًا، وإن كانت أخذت تضعف من بعد نصفه الأول»[2].

واستمر القرآن المدني يتحدث عن عظمة الله وحقيقة الكون والترغيب في الجنة والترهيب من النار ويشرع الأحكام لتربية الأمة، ودعم مقومات الدولة التي ستحمل نشر دعوة الله بين الناس قاطبة، وتجاهد في سبيل الله.

---

(١) انظر: الظلال (١/ ٢٧) ومابعدها.

(٢) انظر: السيرة النبوية، دَرْوَزَة (٢/ ٧٣، ٧٦) نقلاً عن: دراسات في عهد النبوة، د. عبد الرحمٰن الشجاع (ص ١٧٢).

وكانت مسيرة الأمة العلمية تتطور مع تطور مراحل الدعوة وبناء المجتمع، وتأسيس الدولة، وقد أشاد القرآن الكريم بالعلم، والذين يتعلمون، ورويت أحاديث عن تقدير الرسول الله ﷺ للعلم.. وتضمنت كتب الحديث أبوابًا عن العلم.

لقد أيقنت الأمة أن العلم من أهم مقومات التمكين، لأن من المستحيل أن يمكن الله تعالى لأمة جاهلة، متخلفة عن ركاب العلم، وإن الناظر للقرآن الكريم ليتراءى له في وضوح أنه زاخر بالآيات التي ترفع من شأن العلم، وتحث على طلبه وتحصيله، فقد جعل القرآن الكريم العلم مقابلاً للكفر[١] الذي هو الجهل والضلال قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: الآية ٩].

وإن الشيء الوحيد الذي أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يطلب منه الزيادة هو العلم. قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، كما أن أول خاصية ميز الله تعالى بها آدم ـ عليه السلام ـ هي العلم ـ قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: الآية ٣١].

واستمر النبي ﷺ في منهجه التربوي لكي يعلم أصحابه ويذكرهم بالله ﷻ، ويحثهم على مكارم الأخلاق، ويوضح لهم دقائق الشريعة وأحكامها، وكان توجيهه ﷺ لأصحابه أحيانًا فرديًا ومرة جماعيًا، وترك لنا الحبيب المصطفى ثروة هائلة في وسائله التربوية في التعليم وإلقاء الدروس، فقد راعى ﷺ الوسائل التربوية التي تعين على الحفظ وحسن التلقي، وتؤدي إلى استقرار الحديث في نفوس وأفئدة الصحابة الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ ومن هذه الوسائل والمبادىء العظيمة النافعة[٢] في العهد المكي والمدني:

أولاً: أهم هذه الوسائل والمبادىء التربوية:

١ ـ تكرار الحديث وإعادته:

فذلك أسهل في حفظه، وأعون على فهمه، وأدعى لاستيعابه ووعي معانيه، ولذلك حَرَص النبي ﷺ على تكرير الحديث في غالب أحيانه، فعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنه كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثًا حتى تُفهَم عنه...[٣].

٢ ـ التأني في الكلام والفصل بين الكلمات:

كان ﷺ يتأنى ولا يستعجل في كلامه، بل يفصل بين كلمة وأخرى حتى يسهل الحفظ، ولا يقع التحريف والتغيير عند النقل، وبلغ من حرص النبي ﷺ ذلك أنه كان يسهُل على

---

(١) التمكين للأمة الإسلامية (ص ٦٢).

(٢) انظر: مناهج وآداب الصحابة في التعلم والتعليم، د. البر (ص ٥٩، ٦٠).

(٣) البخاري: كتاب العلم، باب من أعاد الحديث ثلاثًا...، ورقمه (٩٥).

السامع أن يعُد كلماته ﷺ لو شاء[١]، فقد روى عروة بن الزبير رحمه الله أن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: ألا يُعْجِبُكَ أبو فلان؟ جاء فجلس إلى جانب حجرتي يُحدِّث عن رسول الله ﷺ يُسْمِعُني ذلك، وكنت أُسَبِّح[٢]، فقام قبل أن أقضي سُبْحتي، ولو أدركته لرددت عليه؛ إن رسول الله ﷺ لم يكن يَسْرُدُ الحديث كسردكم»[٣].

٣ ـ الاعتدال وعدم الإملال واختيار الوقت المناسب:

كان ﷺ يقتصد في تعليمه في مقدار ما يلقيه، وفي نوعه، وفي زمانه حتى لا يمل الصحابة، وحتى ينشطوا لحفظه، ويسهل عليهم عقلُه وفهمه، فعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: كان النبي ﷺ يتخوَّلُنا[٤] بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا[٥].

٤ ـ ضرب الأمثال:

للمثل أثر بالغ في إيصال المعنى إلى العقل والقلب، ذلك أنه يقدم المعنويَّ في صورة حسية فيربطه بالواقع ويقربه إلى الذهن، فضلاً عن أن للمثل بمختلف صوره بلاغة تأخذ بمجامع القلوب، وتستهوي العقول، وبخاصة عقول البلغاء، ولذلك استكثر القرآن من ضرب الأمثال، وذكر حكمة ذلك في آيات كثيرة، فقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

إلى غير ذلك من الآيات، وعلى هذا المنهج الكريم سار النبي ﷺ فاستكثر من ضرب الأمثال، فقد قال عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: «حفظت عن رسول الله ﷺ ألف مثل»[٦].

وقد أُلفت كتب متعددة في الأمثال في الحديث النبوي من أقدمها كتاب: (أمثال الحديث) للقاضي أبي محمد الحسن بن عبد الرحمٰن الرَّامَهُرْمُزِيّ (ت ٣٦٠هـ)[٧].

٥ ـ طرح المسائل:

إن طرح السؤال من الوسائل التربوية المهمة في ربط التواصل القوي بين السائل

---

(١) انظر: مناهج آداب الصحابة، د. عبد الرحمٰن البر (ص ٦٢).

(٢) أسبح: أصلي النافلة وهي السُّبحة، وقيل صلاة الضحى.

(٣) البخاري: كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، رقم (٣٥٦٨).

(٤) يتخوّلنا: يتعهدنا.

(٥) البخاري: كتاب العلم، باب ماكان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة، رقم (٦٨).

(٦) انظر: مناهج وآداب الصحابة (ص ٦٥).

(٧) المصدر نفسه (ص ٦٥)، كل وسائل التعليم النبوية اختصرتها من هذا الكتاب القيم.

obeikandi.com

والمسؤول، وفتح ذهن المسؤول وتركيز اهتمامه على الإجابة، وإحداث حالة من النشاط الذهني الكامل، ولذلك استخدم النبي ﷺ السؤال في صور متعددة لتعليم الصحابة، مما كان له كبير الأثر في حسن فهمهم وتمام حفظهم، فأحيانًا يوجه النبي ﷺ السؤال لمجرد الإثارة والتشويق ولفت الانتباه، ويكون السؤال عندئذٍ بصيغة التنبيه (ألا) غالبًا، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات» قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: «إسباغُ الوضوء على المكاره، وكثرةُ الخُطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرِّباط»(١).

وأحيانًا يسألهم النبي ﷺ عما يعلم أنهم لا علم لهم به، وأنهم سيكلُون علمه إلى الله ورسوله، وإنما يقصد إثارة انتباههم للموضوع، ولفت أنظارهم إليه(٢)، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما المفلس؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهمَ له ولا متاع. فقال: «إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعْطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فَنِيَت حسناته قبل أن يُقضَى ما عليه أُخذ من خطاياهم، فطُرحت عليه ثم طُرِح في النار»(٣).

وأحيانًا يسأل فيحسن أحد الصحابة الإجابة، فيثني عليه ويمدحه تشجيعًا له، وتحفيزًا لغيره، كما فعل مع أُبيّ بن كعب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا المنذر أتدري أيُّ آية من كتاب الله معك أعظمُ؟» قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «يا أبا المنذر أتدري أيُّ آية مِنْ كتاب الله معك أعظمُ؟» قال: قلت: الله لا إله إلا هو الحي القيوم. قال: فضرب في صدري، وقال: «والله! لِيَهْنِكَ العلمُ(٤) أبا المنذر»(٥).

فهذا الاستحسان والتشجيع يبعث المتعلم على الشعور بالارتياح والثقة بالنفس، ويدعوه إلى طلب وحفظ المزيد من العلم وتحصيله(٦).

٦ ـ إلقاء المعاني الغريبة المثيرة للاهتمام والداعية إلى الاستفسار والسؤال:

ومن ألطف ذلك وأجمله ما رواه جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ مرّ

---

(١) مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء، ورقمه [٤١ـ (٢٥١)].

(٢) انظر: مناهج وآداب الصحابة (ص ٦٧).

(٣) مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، ورقمه (٥٨١).

(٤) أي ليكن العلم هنيئًا لك.

(٥) مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي، ورقمه (٨١٠).

(٦) انظر: مناهج وآداب الصحابة (ص ٦٩).

obeikandl.com

بالسوق، داخلاً من بعض العَالِيَة، والناس كَنَفَتَه[١]، فمر بِجَدْي أَسَكَّ[٢] ميت، فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال: «أيكم يُحب أن هذا له بدرهم؟» قالوا: ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنعُ به؟ قال: «أتحبون أنه لكم؟» قالوا: والله لو كان حيًّا كان عيبًا فيه لأنه أَسَكُّ، فكيف وهو مَيِّت؟ فقال: «فوالله للدُّنيا أهونُ على الله من هذا عليكم»[٣].

٧ ـ استخدام الوسائل التوضيحية:

كان النبي ﷺ يستخدم ما يسمى اليوم بالوسائل التوضيحية لتقرير وتأكيد المعنى في نفوس وعقول السامعين، وشغل كل حواسهم بالموضوع، وتركيز انتباههم فيه مما يساعد على تمام وعيه وحسن حفظه بكل ملابساته، ومن هذه الوسائل:

● التعبير بحركة اليد: كتشبيكه ﷺ بين أصابعه وهو يبين طبيعة العلاقة بين المؤمن وأخيه، فعن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبَّك بين أصابعه[٤].

● التعبير بالرسم، فكان ﷺ يخطُّ على الأرض خطوطًا توضيحية تسترعي نظر الصحابة، ثم يأخذ في شرح مفردات ذلك التخطيط وبيان المقصود منه، فعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: خطَّ رسول الله ﷺ خطًّا، ثم قال: «هذا سبيل الله» ثم خط خطوطًا عن يمينه، وعن شماله ثم قال: «هذه سُبُلٌ ـ قال يزيد: متفرقة ـ على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه» ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٥] [الأنعام: ١٥٣].

● التعبير برفع وإظهار الشيء موضع الحديث: كما فعل ﷺ عند الحديث عن حكم لبس الحرير والذهب، فعن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: إن نبيَّ الله ﷺ أخذ حريرًا فجعله في يمينه، وأخذ ذهبًا فجعله في شماله ثم قال: «إن هذين حرام على ذكور أمتي»[٦] وفي رواية عند النسائي عن أبي موسى: «أُحِل الذهب والحرير لإناث أمتي، وحُرِّم على ذكورها»[٧]، فجمع

---

(١) كنفته: يعني عن جانبه، والكنف بالتحريك: الناحية والجانب.

(٢) أَسَكّ: مُصْطَلِمُ الأذنين مقطوعهما، النهاية (٢/ ٣٨٤).

(٣) مسلم: كتاب الزهد والرقائق، ورقمه (٢٩٥٧).

(٤) البخاري: كتاب المظالم، باب نصر المظلوم، رقم (٢٤٤٦).

(٥) مسند الإمام أحمد (١/ ٤٣٥) ورقمه في ط/ الرسالة (٤١٤٢) ـ (جـ/ ٢٠٧، ٢٠٨). وقال محققوه: إسناده حسن،... وأخرجه الحاكم (٢/ ٣١٨). قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٦) أبو داود، كتاب اللباس، باب في الحرير للنساء رقم (٤٠٥٧) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

(٧) صحيح سنن النسائي، الألباني، ورقمه (٥١٦٣) وصححه.

النبي ﷺ بين القول وبين رفع الذهب والحرير وإظهارهما حتى يجمع لهما السماع والمشاهدة، فيكون ذلك أوضح وأعون على الحفظ.

● التعليم العملي بفعل الشيء أمام الناس: كما فعل عندما صَعِد ﷺ المنبر فصلَّى بحيث يراه الناس أجمعون، فعن سهل بن سعد الساعدي ـ رضي الله عنه ـ قال: ثم رأيت رسول الله ﷺ صلى عليها[١]، وكبر وهو عليها، ثُمَّ ركع وهو عليها، ثم نزل القَهْقَرى[٢] فسجد في أصل المِنْبر، ثم عاد، فلما فرغ أقبل على الناس، فقال: «أيها الناس، إنما صنعت هذا لتَأْتَمُّوا بي، ولتعلَّموا[٣] صلاتي»[٤].

٨ ـ استعمال العبارات اللطيفة والرقيقة:

إن استعمال لطيف الخطاب ورقيق العبارات يؤلف القلوب، ويستميلها إلى الحق، ويدفع المستمعين إلى الوعي والحفظ، فقد كان ﷺ يمهد لكلامه وتوجيهه بعبارة لطيفة رقيقة، وبخاصة إذا كان بصدد تعليمهم ماقد يستحيا من ذكره، كما فعل عند تعليمهم آداب الجلوس لقضاء الحاجة، إذ قدَّم لذلك بأنه مثل الوالد للمؤمنين، يعلمهم شفقة بهم[٥] فقد قال ﷺ: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أُعلِّمكم، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة، ولا يستدبرْها، ولا يَسْتَطِبْ بيمينه»[٦].

لقد راعى المعلم الأول ﷺ جملة من المبادىء التربوية الكريمة كانت غاية في السمو الخلقي والكمال العقلي، وذلك في تعليقه على ما صدر من بعض الصحابة جعلت التوجيه يستقر في قلوبهم، وبقي ماثلاً أمام بصائرهم لما ارتبط به من معان تربوية كريمة[٧]، وهذا بعض المبادىء الرفيعة التي استعملها النبي ﷺ:

● تشجيع المحسن والثناء عليه:

ليزداد نشاطًا وإقبالاً على العلم والعمل، مثلما فعل مع أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ حين أثنى على قراءته وحسن صوته بالقرآن الكريم، فعن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ

---

(١) عليها: أي على أعواد المنبر التي صنع منها المنبر.

(٢) القهقرى: المشي إلى خلف، من غير أن يعيد وجهه إلى جهة مشيه.

(٣) أي تتعلموا، فحذف إحدى التائين.

(٤) البخاري: كتاب الجمعة، باب الخُطبة على المنبر، رقم (٩١٧).

(٥) انظر: مناهج وآداب الصحابة في التعلم والتعليم (ص ٧٤).

(٦) أبو داود، كتاب الطهارة، باب كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة (١/ ٣، رقم ٨) وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

(٧) انظر: مناهج وآداب الصحابة في التعلم والتعليم (ص ٨٥).

obeikandl.com

قال له: «لو رَأَيْتَني وأنا أستمع لقراءتك البارحة، لقد أوتيتَ مزمارًا من مزامير آل داود»[١].

● الإشفاق على المخطىء وعدم تعنيفه:

كان صلوات الله وسلامه عليه يقدر ظروف الناس ويراعي أحوالهم، ويعذرهم بجهلهم، ويتلطف في تصحيح أخطائهم ويترفق في تعليمهم الصواب، ولا شك أن ذلك يملأ قلب المنصوح حبًّا للرسالة وصاحبها، وحرصًا على حفظ الواقعة والتوجيه وتبليغهما، كما يجعل قلوب الحاضرين المعجبة بهذا التصرف والتوجيه الرقيق مهيأة لحفظ الواقعة بكافة ملابساتها[٢]، ومن ذلك ما رواه معاوية بن الحَكَم السُّلَمي ـ رضي الله عنه ـ قال: «بَيْنَا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمُك الله، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثُكْلَ أُمِّيَاهُ[٣] ما شأنكم تنظرون إليّ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يُصَمِّتُونَنِي، لكني سكت، فلما صلى رسول الله ﷺ، فبأبي هو وأمي! ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسنَ تعليمًا منه، فوالله ما كَهَرني[٤]، ولا ضربني، ولا شتمني، قال: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيحُ والتكبير وقراءةُ القرآن» أو كما قال رسول الله ﷺ[٥].

فانظر ـ رحمك الله ـ إلى هذا الرفق البالغ في التعليم، وانظر أثر هذا الرفق في نفس معاوية بن الحكم السلمي ـ رضي الله عنه ـ وتأثره بحسن تعليمه ﷺ.

● عدم التصريح والاكتفاء بالتعريض فيما يُذم:

لما في ذلك من مراعاة شعور المخطىء، والتأكيد على عموم التوجيه ومن ذلك ما حدث مع عبد الله بن اللُّتَبِيَّة ـ رضي الله عنه ـ حين استعمله النبي ﷺ على صدقات بني سُلَيم، فقبل الهدايا من المتصدقين، فعن أبي حُمَيد الساعدي ـ رضي الله عنه ـ قال: استعمل رسول الله ﷺ رجلاً على صدقات بني سليم يدعى ابن اللُّتَبِيَّة، فلما جاء حاسبه، فقال: هذا مالكم، وهذا هديةٌ. فقال رسول الله ﷺ: «فهلاً جلست في بيت أبيك وأمك حتى تأتيَك هديتك إن كنت صادقًا؟» ثم خطبنا، فحمد الله، وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد، فإني أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولاَّني الله، فيأتي فيقول: هذا مالُكم، وهذا هديةٌ أهديت لي، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتيَه هديته؟ والله لا يأخذُ أحد منكم شيئًا بغير حقه إلا لقي الله يحمله يوم القيامة،

---

(١) مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن ورقمه [٢٣٦ـ (٧٩٣)].

(٢) انظر: مناهج وآداب الصحابة (ص ٨٦).

(٣) وا: حرف للندبة والحسرة، والثُّكل فقدان المرأة ولدها، وأُمِّياه: أي أُمّي، أُلحق بها ألف تلحق المندوب، ثم هاء السكت.

(٤) الكهْر والقهْر والنهرُ متقاربة: أي، ما قهرني ولا نهرني.

(٥) مسلم، كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة، ورقمه (٥٣٧).

www.alukah.net

فلأعرفنَّ أحدًا منكم لقي الله يحمل بَعيرًا له رُغاء أو بقرةً لها خُوار، أو شاة تَيْعَرُ»(١) ثم رفع يديه حتى رُئي بياض إبطه يقول: «اللهم هل بلغت» بَصْرَ عيني وسَمْعَ أذني(٢).

● الغضب والتعنيف متى كان لذلك دوافع مهمة:

وذلك كأن يحدث خطأ شرعي من أشخاص لهم حيثية خاصة، أو تجاوز الخطأ حدود الفردية والجزئية، وأخذ يمثل بداية فتنة أو انحراف عن المنهج، على أن هذا الغضب يكون غضبًا توجيهيًا، من غير إسفاف ولا إسراف، بل على قدر الحاجة، ومن ذلك غضبه ﷺ حين أتاه عمر ومعه نسخة من التوراة ليقرأها عليه ﷺ، فعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أتى رسول الله ﷺ بنسخة من التوراة، فقال: يا رسول الله هذه نسخة من التوراة، فسكت فجعل يقرأ ووجه رسول الله يتغير، فقال أبو بكر: ثكلتك الثواكل، ما ترى بوجه رسول الله ﷺ؟ فنظر عمر إلى وجه رسول الله ﷺ فقال: أعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله، رضينا بالله ربًا وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًا. فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لو بدا لكم موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم عن سواء السبيل، ولو كان حياً وأدرك نبوتي لاتبعني»(٣).

ومن ذلك غضبه ﷺ من تطويل بعض أصحابه الصلاة وهم أئمة، بعد أن كان ﷺ نهى عن ذلك لما فيه من تعسير ومشقة، ولما يؤدي إليه من فتنة لبعض الضعفاء والمعذورين وذوي الأشغال، فعن أبي مسعود الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رجل: يا رسول الله لا أكاد أُدرك الصلاة مما يُطوِّل بنا فلانٌ. فما رأيت النبي ﷺ في موعظة أشدَّ غضبًا من يومئذٍ فقال: «أيها الناس، إنكم مُنَفِّرون فمن صلى بالناس فليخفف، فإن فيهم المريضَ والضعيف وذا الحاجة»(٤).

ومن ذلك غضبه من اختصام الصحابة وتجادلهم في القدر، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، وهم يختصمون في القَدَر، فكأنما يُفْقَأُ في وجهه حَبُّ الرمان من الغضب، فقال: «بهذا أُمرتم؟ أو لهذا خُلقتم؟ تَضْرِبون القرآن بعضَه ببعض؟ بهذا هَلكت الأمم قبلَكم»(٥).

---

(١) الرغاء: صوت الإبل عند رفع الأحمال عليها، الخوار: صوت البقر، تيعر: يعني تصيح.

(٢) البخاري: كتاب الحيل، باب احتيال العامل ليُهدى له، رقم (٦٩٧٩).

(٣) مجمع الزوائد: (١/ ١٧٣، ١٧٤)، له شواهد كثيرة تقوي الحديث. روى هذا الحديث أئمة منهم: أحمد (٣/ ٣٨٧) ومواضع أخرى، وأورده الشيخ الألباني في (إرواء الغليل ـ جـ ٦/ ٣٤) وأورد تقويم العلماء له، ثم قال: «لكن الحديث قوي فإن له شواهد كثيرة» وذكرها فانظرها عنده.

(٤) البخاري: كتاب العلم، باب الغضب في الموعظة والتعليم. . رقم (٩٠).

(٥) ابن ماجه، كتاب المقدمة، باب في القدر، رقم (٨٥)، وقال البوصيري في الزوائد: هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه، ورقمه عنده (٦٩ـ ٨٤).

ومن ذلك غضبه ﷺ حين يخالف الصحابة أمره، ويصرون على المغالاة في الدين والتشديد على أنفسهم، ظنًا أن ذلك أفضل مما أمروا به، وأقرب إلى الله، فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أمرهم من الأعمال بما يُطيقون قالوا: إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله، إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فيغضبُ حتى يُعرفَ الغضبُ في وجهه، ثم يقول: «إن أتقاكم وأعلمَكم بالله أنا»(١).

ولم يكن غضب النبي ﷺ في تلك المواقف إلا عملاً توجيهيًا وتعليميًا وتحريضًا للصحابة على التيقظ، وتحذيرًا لهم من الوقوع في هذه الأخطاء، فالواعظ «من شأنه أن يكون في صورة الغضبان، لأن مقامه يقتضي تكلف الانزعاج لأنه في صورة المنذر، وكذا المعلم إذا أنكر على من يتعلم منه سوء فهم ونحوه لأنه قد يكون أدعى للقبول منه، وليس ذلك لازمًا في حق كل أحد، بل يختلف باختلاف أحوال المتعلمين»(٢).

● **انتهاز بعض الوقائع لبيان وتعليم معان مناسبة:**

كان ﷺ تحدث أمامه أحداث معينة فينتهز مشابهة ما يرى لمعنى معين يريد تعليمه للصحابة، ومشاكلته لتوجيه مناسب يريد بثه لأصحابه، وعندئذٍ يكون هذا المعنى وذلك التوجيه أوضح مايكون في نفوسهم ـ رضوان الله عليهم ـ ومن ذلك مارواه عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: قَدِمَ على النبي ﷺ سَبْيٌ(٣) فإذا امرأةٌ في السَّبي قد تَحْلُبُ ثَدْيَها(٤) تَسْقِي(٥) إذا وجدت صبيًا في السَّبي أخذته فألصقته ببطنها، وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: «أَتُرَوْن هذه طارحةً ولدها في النار؟» قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحَه(٦) فقال: «لله أرحمُ بعباده من هذه بولدها»(٧).

فانتهز ﷺ المناسبة القائمة بين يديه مع أصحابه المشهود فيها حنان الأم الفاقدة على رضيعها إذ وجدته، وضرب بها المشاكلة والمشابهة برحمة الله تعالى ليعرف الناس رحمة رب

---

(١) البخاري: كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «أنا أعلمكم بالله» رقم (٢٠).
(٢) فتح الباري (١/١٨٧).
(٣) السَّبْيُ: الأسرى.
(٤) تحلُبُ ثديها، وفي لفظ آخر: تَحَلَّب ثديُها أو ثدياها: أي تهيأ لأن يُحلب.
(٥) هذا لفظ نسخة للصحيح ونسخة لفتح الباري، وفي نسخ أخرى: تسعى: من السعي، وهو المشي بسرعة.
(٦) أي لا تطرحه طائعةً أبدًا.
(٧) البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته رقم (٥٩٩٩)، وقد أورد الإمام ابن حجر في فتح الباري عند الحديث نفسه، ألفاظًا أخرى في متن الحديث، ثبتت لبعض الأئمة الرواة لصحيح البخاري فانظرها هناك.

الناس بعباده»[١].

ثانيًا: من أخلاق الصحابة عند سماعهم للنبي ﷺ:

حَرَص الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ على الالتزام بآداب ومبادىء مهمة، كان لها عظيم الأثر في حسن الحفظ وتمام الضبط وقدرتهم في تبليغ دعوة الله للناس، ومن هذه الآداب والأخلاق:

١ ـ الإنصات التام وحسن الاستماع:

فقد كان رسول الله ﷺ أجل في نفوس الصحابة وأعظم من أن يَلْغَوْا إذا تحدث، أو ينشغلوا عنه إذا تكلم أو يرفعوا أصواتهم بحضرته، وإنما كانوا يلقون إليه أسماعهم ويشهدون عقولهم وقلوبهم، ويحفزون ذاكرتهم، فعن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ في الحديث عن سيرته ﷺ في جلسائه قال: «.. وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلموا...»[٢].

قال الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله: «أصله: أن الغراب يقع على رأس البعير فيلقط منه القُراد فلا يتحرك البعير حينئذٍ لئلا ينفر عنه الغراب ويبقى القراد في رأس البعير فيؤلمه، فقيل منه: كأن على رؤوسهم الطير»[٣].

وأيًا ما كان أصل المثل فهو يدل على السكون التام، والإنصات الكامل هيبة لرسول الله ﷺ وتعظيمًا له، وإجلالاً لحديثه[٤].

٢ ـ ترك التنازع وعدم مقاطعة المتحدث حتى يفرغ:

وهذا من تمام الأدب، المفضي إلى ارتياح جميع الجالسين، وإقبال بعضهم على بعض، والمعين على سهولة الفهم، والتعلم، ففي حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ السابق في سيرته ﷺ في جلسائه قال: «لا يتنازعون عنده الحديث، ومن تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ، حديثهم عنده حديث أولهم..»[٥] أي أن من بدأ منهم الحديث والكلام سكتوا حتى

---

(١) الرسول المعلم، عبد الفتاح أبو غدة (ص ١٦٠)، هذا المبحث اختصرته من مناهج وآداب الصحابة في التعلم والتعليم للدكتور عبد الرحمٰن البر.

(٢) الترمذي في الشمائل المحمدية، باب ماجاء في خلق رسول الله، رقم (٣٣٥)، وانظر تحقيق وتعليق أ. سميح عباس على مختصره للشمائل الذي سماه «أوصاف النبي ﷺ» عند الأحاديث (٧، ٢٢٦، ٣٤٥)، وانظر حديث هند بن أبي هالة، والأخبار التي تشهد له بالصحة في دلائل النبوة للبيهقي، تحقيق د. عبد المعطي قلعجي (جـ ١/ ٢٨٥ ـ ٣٣٢).

(٣) انظر: الرسول المعلم وأساليبه في التعليم (ص ٣٠).

(٤) انظر: مناهج وآداب الصحابة (ص ٧٧).

(٥) الترمذي في الشمائل المحمدية، باب ماجاء في خلق رسول الله، رقم (٣٣٥) وانظر (هـ ٢ ـ ص ٤٦٧) السالف.

يفرغ أولاً من حديثه، ولم يقاطعوه أو ينازعوه وبذلك يبقى المجلس على وقاره وهيبته، ولا تختلط فيه الأصوات ولا يحصل أدنى تشويش[(١)].

٣ ـ مراجعته ﷺ فيما أشكل عليهم حتى يتبين لهم:

فمع كمال هيبتهم لرسول الله ﷺ وشدة تعظيمهم له لم يكونوا يترددون في مراجعته ﷺ لاستيضاح ما أشكال عليهم فهمه، حتى يسهل حفظه بعد ذلك، ولا شك أن هذه المراجعة تعين على تمام الفهم وحضور الوعي، فمن ذلك حديث حفصة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال النبي ﷺ: «إني لأرجو ألا يدخلَ النار أحد إن شاء الله تعالى ممن شهد بدرًا والحديبية» قالت: قلت: يا رسول الله أليس قد قال الله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١] قال: «ألم تسمعيه يقول: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢] [(٢)].

ومن ذلك حديث جابر بن عبد الله، عن عبد الله بن أنيس ـ رضي الله عنه ـ الذي رحل جابر إليه فيه، قال ابن أنيس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الله العباد» ـ أو قال: «الناس ـ عراة غُرْلاً[(٣)] بُهْمًا» قال: قلنا: ما بُهْمًا؟ قال: «ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعُد كما يسمعه من قرب: أنا الملك، أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة، ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار، وعنده مظلمة حتى أُقِصَّه[(٤)] منه، حتى اللطمة» قال: قلنا: كيف ذا وإنما نأتي الله غرلاً بُهْمًا؟ قال: «بالحسنات والسيئات». قال: وتلا رسول الله ﷺ: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٧] [(٥)].

وهكذا استفهم الصحابة عما خفي عليهم، واستوضحوا ما أشكل عليهم فهمه، وهذه المناقشة والمراجعة كان لها أثر كبير في الفهم والوعي والحفظ[(٦)].

٤ ـ مذاكرة الحديث:

كان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ إذا سمعوا شيئًا من النبي ﷺ وحملوا عنه علمًا جلسوا فتذاكروه فيما بينهم وتراجعوه على ألسنتهم، تأكيدًا لحفظه، وتقوية لاستيعابه وضبطه والعمل به، فعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: «كنا نكون عند النبي ﷺ فنسمع منه الحديث

---

(١) انظر: مناهج وآداب الصحابة (ص ٧٨).

(٢) ابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر البعث، ورقمه (٤٢٨١)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه، ورقمه عنده (٣٤٧٣ـ ٤٣٥٧).

(٣) غُرْلاً: جمع أغْرَل، وهو الأقلف، والغُرْلة: القُلفة: وهي القطعة التي تقطع من الذكر عند الختان.

(٤) أُقِصَّه: أُمَكِّنه من أخذ القصاص ممن ظلمه.

(٥) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٣٧)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٦) انظر: مناهج وآداب الصحابة (ص ٨٠).

فإذا قمنا تذاكرناه فيما بيننا حتى نحفظه»[١] وقد بقي مبدأ المذاكرة قائمًا بين الصحابة حتى بعد وفاته ﷺ، فعن أبي نضرة المنذر بن مالك بن قطعة رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا اجتمعوا تذاكروا العلم، وقرءُوا سوره»[٢].

وعن أبي سعيد الخدري قال: «تحدثوا وتذاكروا، فإن الحديث يُذكّر بعضهُ بعضًا»[٣].

٥ ـ السؤال بقصد العلم والعمل[٤].

كانت أسئلة الصحابة بقصد العلم والعمل، لا للعبث واللعب فكانت أسئلتهم مشفوعة بهذا القصد لما علموا من كراهة النبي ﷺ للمسائل العبثية التي لا يُحتاج إليها، ولما سمعوا من تحذيره ﷺ من كثرة السؤال، فعن سهل بن سعد الساعدي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: «كره رسول الله ﷺ المسائل وعابها»[٥].

قال النووي: «المراد: كراهة المسائل التي لا يُحتاج إليها، لا سيما ما كان فيه هتك ستر مسلم، أو إشاعة فاحشة أو شناعة على مسلم أو مسلمة. قال العلماء: أما إذا كانت المسائل مما يُحتاج إليه في أمور الدين وقد وقع، فلا كراهة فيها»[٦].

٦ ـ ترك التنطُّع وعدم السؤال عن المتشابه:

وذلك تطبيقًا لتحذير النبي ﷺ من ذلك، وتشديده على المتنطِّعين، ونهيه عن مجالستهم، فعن عائشة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [آل عِمرَان: ٧] قالت: قال رسول الله ﷺ: «فإذا رأيتِ الذين يَتّبِعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم»[٧].

---

(١) أخرجه الخطيب في الجامع (١/ ٣٦٣، ٣٦٤) وفيه يزيد الرقاشي، قال الهيثمي في المجمع (١/ ١٦١): وهو ضعيف.

(٢) أخرجه الخطيب في الجامع (٢/ ٨٦، رقم ١٢٢٩)، والسمعاني في أدب الإملاء والاستملاء (ص ٤٨).

(٣) الجامع لأخلاق الراوي، للخطيب، تحقيق د. محمود الطحان (جـ ١/ ٢٣٧ ورقمه ٤٦٨)، وأورد نحوه الهيثمي عن ابن نضرة عن أبي سعيد في المجمع (١/ ١٦١) وقال: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح.

(٤) انظر: مناهج وآداب الصحابة (ص ٩٦).

(٥) أخرجه أبو خيثمة زهير بن حرب بإسناد صحيح في كتاب العلم (ص ٢٠، رقم ٧٧).

(٦) شرح النووي على مسلم (٣/ ٧٤١) ط/ الشعب.

(٧) البخاري: كتاب التفسير، سورة آل عمران، رقم (٤٥٤٧).

obeikandl.com

٧ ـ ترك السؤال عما سكت عنه الشارع:

فقد التزموا ـ رضوان الله عليهم ـ بهذا الأدب، فلم يتكلَّفوا السؤال عما سكت عنه الشارع، حتى لا يؤدي السؤال عن ذلك إلى إيجاب ما لم يوجبه الشرع، أو تحريم ما لم يحرمه، فيكون السؤال قد أفضى إلى التضييق على المسلمين، كما قال تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [المَائدة: ١٠١ ـ ١٠٢].

وحذر الرسول ﷺ من مثل ذلك، فعن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أعظمَ المسلمين جُرماً من سأل عن شيء لم يُحَرَّم، فَحُرِّم من أجل مسألته»(١).

٨ ـ اغتنام خلوة رسول الله ﷺ ومراعاة وقت سؤاله:

كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ يراعون الوقت المناسب للسؤال، ومن ذلك اغتنام ساعة خلوته ﷺ، حتى لا يكون في السؤال إثقال أو إرهاق أو نحو ذلك، فعن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان النبي ﷺ إذا صلى الفجر انحرفنا إليه فمنَّا من يسأله عن القرآن، ومنَّا من يسأله عن الفرائض، ومنا من يسأله عن الرؤيا»(٢).

٩ ـ مراعاة أحواله ﷺ وعدم الإلحاح عليه بالسؤال:

وبخاصة بعد أن نُهوا عن السؤال، ولذلك كانوا يدفعون الأعراب لسؤاله ﷺ، ويتحينون وينتظرون مجيء العقلاء منهم، ليسألوا رسول الله ﷺ وهم يسمعون، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: «نُهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء، فكان يُعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقلُ، فيسأله ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمد، أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك قال: «صدق»... الحديث(٣).

وهكذا استمر البناء التربوي في المجتمع الجديد من خلال المواقف العملية الواضحة متوافقًا مع غرس فريضة التعلم والتعليم بين أفراد المجتمع المسلم، فكانت تلك التوجيهات تساهم في إعداد الفرد المسلم، والأمة المسلمة، والدولة المسلمة التي أسسها رسول الله ﷺ

---

(١) البخاري، كتاب الاعتصام، باب مايكره من كثرة السؤال.. ورقمه (٧٢٨٩) واللفظ له، ومسلم: كتاب الفضائل ـ باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله... ورقمه (٢٣٥٨).

(٢) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/١٥٩)، رواه الطبراني في الكبير، وفيه محمد بن عمر الرومي، ضعفه أبو داود وأبو زرعة، ووثقه ابن حبان.

(٣) مسلم: كتاب الإيمان، باب السؤال عن أركان الإسلام، ورقمه [١٠ـ (١٢)].

وهذا جزء من كل، وغيض من فيض، وتذكير وتنبيه لأهمية استمرار البناء التربوي والعلمي في الأمة حتى بعد قيام الدولة.

المبحث السادس
أحداث وتشريعات

أولاً: معالجة الأزمة الاقتصادية:

أدت هجرة المسلمين إلى المدينة إلى زيادة الأعباء الاقتصادية الملقاة على عاتق الدولة الناشئة، وشرع القائد الأعلى ﷺ يَحُلّ هذه الأزمة بطرق عديدة، وأساليب متنوعة، فكان نظام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وبناء الصُّفة التابعة للمسجد النبوي لاستيعاب أكبر عدد ممكن من فقراء المهاجرين، واهتم ﷺ بدراسة الأوضاع الاقتصادية في المدينة، فرأى أن القوة الاقتصادية بيد اليهود، وأنهم يملكون السوق التجارية في المدينة وأموالها، ويتحكمون في الأسعار والسلع، ويحتكرونها، ويستغلون حاجة الناس، فكان لا بد من بناء سوق للمسلمين لينافسوا اليهود على مصادر الثروة والاقتصاد في المدينة، وتظهر فيها آداب الإسلام وأخلاقه الرفيعة في عالم التجارة.

إن المنهج الرباني عالج المشكلة الاقتصادية عن طريق القصص القرآني لكي يتعظ الناس، ويعتبرون بمن مضى من الأقوام، ولم يترك الجانب التشريعي التعبدي الذي له أثر في البناء التنظيمي التربوي، فقد كان المولى ﷻ يرعى هذه الأمة، وينقل خطاها لكي تكون مؤهلة لحمل الأمانة، وتبليغ الرسالة، ولا فرق في وسط هذه الدولة بين الأمور الصغيرة والأمور الكبيرة، لأنها كلها تعمل لرفع بنائها، ووقوفها شامخة أمام الأعاصير التي تحتمل مواجهتها، ومن هذه الشعائر التعبدية التي فرضت في السنتين الأوليين من الهجرة: الزكاة، وصدقة الفطر، والصيام، ونلاحظ سُنَّة التدرج في بناء المجتمع المسلم، ومراعاته لواقع الناس، والانتقال بهم نحو الأفضل، دون اعتساف أو تعجيل، بل كان كل شيء في وقته(١).

ثانيًا: بعض التشريعات:

١ ـ تشريع فريضة الصيام:

في السنة الثانية للهجرة من شهر شعبان فرض الله تعالى فريضة الصيام وجعله ركنًا من أركان الإسلام، كما فرضه على الأمم السابقة، وفي ذلك تأكيد على أهمية هذه العبادة الجليلة ومكانتها. قال تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

(١) انظر: دراسات في عصر النبوة للشجاع (ص ١٦٦، ١٦٨).

[البَقَرَة: ١٨٣] .

٢ ـ تشريع صدقة الفطر:

وفي رمضان من العام نفسه شرع الله سبحانه وتعالى زكاة الفطر وهي على كل حُرّ أو عبد، ذكر أو أنثى، صغير أو كبير من المسلمين، والحكمة من فريضة هذه الزكاة وإلزام المسلمين بها ظاهرة وجلية، قال عبد الله بن عباس ـ ﵄ ـ: «فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر طُهْرةً للصائم من اللغو والرفث وطُعْمةً للمساكين، من أدّاها قبل الصلاة فهي زكاةٌ مقبولة، ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقةٌ من الصدقات»(١).

٣ ـ صلاة العيد:

وفي هذه السَّنة صلى النبي ﷺ صلاة العيد، فكانت أول صلاة صلاها، وخرج بالناس إلى المصلى يهللون الله، ويكبِّرونه، ويعظِّمونه شكرًا لله على ما أفاء عليهم من النعم المتتالية.

٤ ـ تشريع الزكاة:

وفي السنة الثانية للهجرة شرع الله الزكاة التي هي ركن من أركان الإسلام، وكان ذلك بعد شهر رمضان، لأن تشريع الزكاة العامة كان بعد زكاة الفطر، وزكاة الفطر كانت بعد فرض صيام رمضان قطعًا، يدل على هذا ما رواه الأئمة أحمد وابن خزيمة والنسائي وابن ماجه والحاكم من حديث قَيْس بن سعد بن عبادة قال: «أَمَرَنا رسول الله ﷺ بصدقة الفطر قبل أن تَنْزِل الزكاة، ثم نزلت الزكاةُ، فلم يأمرنا ولم ينهنا ونحن نفعله»(٢). قال الحافظ ابن حجر: إسناده صحيح، وجمهور العلماء سلفًا وخلفًا على أن مشروعية الزكاة إنما كانت بالمدينة في السنة الثانية(٣).

٥ ـ زواجه ﷺ بعائشة ﵂:

عقد رسول الله ﷺ على عائشة ـ ﵂ ـ في مكة قبل الهجرة وهي ابنة ست سنين بعد وفاة خديجة ـ ﵂ ـ وبنى بها في المدينة وهي ابنة تسع سنين، وذلك في شهر شوال من السنة الأولى للهجرة(٤).

فكانت حركة الدعوة والجهاد والتربية وبناء الدولة مستمرة ولم تتعطل حالات الزواج في

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر رقم (١٦٠٩) وحسنه الألباني في صحيح أبي داود، بالرقم نفسه.

(٢) صحيح سنن النسائي، للألباني، كتاب الزكاة، باب فرض صدقة الفطر قبل نزول الزكاة، ورقمه (٢٥٠٦) وصححه.

(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١١١).

(٤) انظر: من معين السيرة (ص ١٦٨).

حياة الرسول ﷺ وأصحابه، بل الزواج والإكثار منه كان عاديًا جدًا في حياتهم كالطعام والشراب، وذلك من مظاهر أن الإسلام دين الفطرة والواقع، بل إن الزواج جزء مهم في بناء المجتمع المسلم(١).

وكان رسول الله ﷺ قد بنى بعائشة ـ رضي الله عنها ـ وهو في الرابعة والخمسين من عمره، وحيثما يذكر هذا الرقم يتبادر للذهن الشيب، والضعف، ونفسية أصابتها الشيخوخة، ولا شك أن مرور الأعوام هو مقياس أعمار الناس كقاعدة عامة، ولكن المقياس الحقيقي هو حيوية الإنسان ونشاطه وقدرته على المبادرة والعمل، فقد نجد إنسانًا في الثلاثين يحمل في جسمه ونفسيته أعباء الخمسين، وقد نجد بعض الأحيان إنسان الخمسين فلا نحكم عليه بأكثر من الثلاثين، وشخصية رسول الله ﷺ فذة في هذا الميدان، فهو ـ وهو في الخمسين ـ كان رجلاً في عنفوان شبابه همة وعزمًا وفحولة، إنه في هذا لا يساويه أي إنسان ﷺ.

والفارق في العمر بينه ﷺ وبين عائشة لم يكن ذلك الفارق الكبير من وجهة النظر العملية، فها هو ﷺ يسابق السيدة عائشة، فتسبقه مرة، ويسبقها أخرى فيقول: «هذه بتلك»(٢)، والأمثلة في حياته كثيرة(٣).

ويستطيع كل ذي نظر أن يدرك الحكمة الجليلة التي كانت وراء زواج رسول الله ﷺ من عائشة ـ رضي الله عنها ـ فقد تم هذا الزواج الميمون، في مطلع الحياة في المدينة، ومع بداية المرحلة التشريعية من حياته ﷺ، ومما لا شك فيه أن الإنسان يقضي جزءًا كبيرًا من حياته في بيته ومع أسرته، وكان لا بد من نقل سلوك الرسول الكريم في هذا الجانب من حياته إلى الناس حتى يستطيعوا التأسي به، وكانت تلك مهمة السيدة عائشة على الخصوص، وبقية أمهات المؤمنين ـ رضي الله عنهن ـ فقد استطاعت السيدة عائشة بما وهبها الله من ذكاء وفهم أن تؤدي دورها على خير ما يرام، وإنَّ نظرة عابرة لأي كتاب من كتب السيرة تبين وتؤكد ما ذهبت إليه. وقد ساعدها على ذلك أن الله تعالى كتب لها الحياة ما يقرب من خمسين عامًا بعد وفاة رسول الله ﷺ وساعدتها تلك المدة على أن تُبَلِّغَ ما وعته عن رسول الله ﷺ فرضي الله عنها(٤).

انتهى الجزء الأول
ويليه الجزء الثاني والأخير
ويبدأ بالفصل الثامن «غزوة بدر الكبرى»

(١) انظر: الأساس في السنة (١/ ٤٢٠).
(٢) انظر: من معين السيرة (ص ١٧٢).
(٣) المصدر نفسه (ص ١٧٢).
(٤) انظر: من معين السيرة (ص ١٧٣).

obeikandl.com